كتاب الهلال

مذكرات محكوم عليه بالإعدام

فيكتور هيجو

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ١٠٧ – شعبان ١٣٧٩ – فبراير ١٩٦٠

No. 107 — February 1960

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

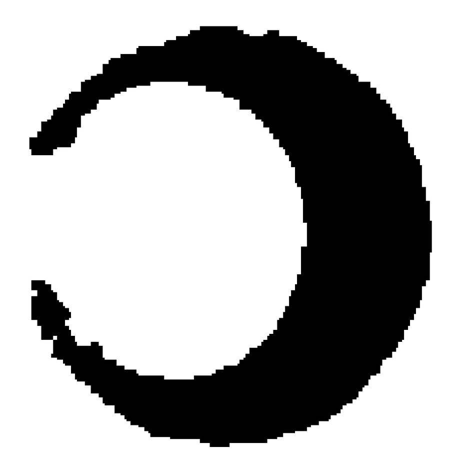
المكاتبات

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) اقليم مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ – اقليم سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا – السعودية والعراق والاردن وليبيا واليمن وغزة ١٣٠ قرشا صاغا – فى الامريكتين ٥ ١/٢ دولارات – فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

مذكرات
محكوم عليه بالإعدام

للكاتب الأشهر

فيكتور هيجو

ترجمة

لطفي سلطان

مقدمة

بقلم ڤيكتور هيجو

لم يظهر فى مقدمة الطبعات الاولى من هذا الكتاب ، الذى نشر أول مانشر دون ذكر اسم مؤلفه ، سوى السطور القليلة التالية :

« هناك وسيلتان نحس عن طريقهما بوجود هذا الكتاب،أو ان شئت فقل : كانت هناك فى الواقع رزمة من الاوراق الصفراء غير المنتظمة ، سجل عليها آخر ماجال بذهن انسان بائس من افكار ، ورقة بعد ورقة ، أو انه كان هناك رجل مفكر ، شغلته ملاحظة الطبيعة فى سبيل الفن ، رجل فيلسوف أو شاعر ــ لست أدرى ــ كانت هذه الفكرة نزوة من نزواته سيطر عليها ، أو بالأحرى سيطرت هى عليه ، ولم يستطع التخلص منها الا بتدوينها فى كتاب .. وعلى القارىء أن يختار من بين هذين التفسيرين مايروق له »

ويستطيع القارىء أن يلاحظ أن المؤلف لم يجد من المناسب أن يفصح عن فكره عندما نشر هذا الكتاب ، وانما آثر أن ينتظر

حتى تفهم فكرته ويتلمس صداها لدى الجمهور . ومالبثت الايام أن حققت ماكان يتوق الى معرفته ، اذ فهم الجمهور فكرته التي ضمنها هذا الكتاب . ويستطيع المؤلف اليوم أن يكشف النقاب عن الفكرة السياسية والاجتماعية التى اراد أن يروج لها فى هذا القالب الآدبى الساذج البرىء ، فهو يعترف اذن ، أو بالاحرى هو يعلن بصوت مدو وعلى رءوس الاشهاد ، أن كتاب « آخر ايام محكوم عليه بالاعدام » ليس الا دفاعا مباشرا ـ أو غير مباشر ان شئت ـ عن الغاء عقوبة الاعدام

أن ماكان يقصد اليه الكاتب بمؤلفه هذا ، وماكان يريد أن تتبينه الاجيال المقبلة ، اذا هى عنيت بأمره ، ليس الدفاع الخاص عن مجرم بعينه أو عن متهم يتخيره الكاتب ،فمثل هذا الدفاع الخاص أمره ميسور دائما وهو يتغير تبعا للظروف ، بل هو فى حقيقة أمره مرافعة عامة وابدية عن المتهمين جميعا ، فى الحاضر وفى المستقبل . انه حجر الزاوية فى الحق الانسانى الذى يبسطه الكاتب ويدافع عنه بأعلى صوته أمام المجتمع الذى يعد محكمة النقض الكبرى ، مستهدفا حماية حقه فى الاستئناف الذى غالبا مايرفض فى قضايا الاجرام !

انها مشكلة كئيبة مظلمة تنبض فى غير وضوح خلف جميع القضايا الكبرى ، وتختفى وراء ستار كثيف من الكلام الرنان ، ومن البلاغة الدامية التى يحيطها بها رجال الملك (أى رجال القضاء) . نعم ، انني أقول انها مسألة « الحياة والموت » عارية ومجردة من كل رسميات النيابة العمومية وشكليات

الاتهام الرنانة ، ومعروضة بشكل بارز فى وضح النهار ، فى المكان الذى يجب أن نراها فيه ، مكانها الواقعى على الطبيعة ، وفى بيئتها الشنيعة المروعة ، لا عند القاضى فى المحكمة ، ولكن على المقصلة .. عند الجلاد !

ذلك هدف الشاعر الذى رمى اليه من تأليف هذا الكتاب . فان كلل المستقبل هامته ذات يوم بالمجد ـ وهو مالايجسر على أن يأمله ـ فسوف يغنيه هذا عن كل شىء آخر

يعلن المؤلف اذن ويكرر القول باسم جميع المتهمين ،سواء كانوا أبرياء أو مذنبين ، أمام جميع المحاكم وسائر ممثلى الاتهام والمحلفين : ان هذا الكتاب موجه الى كل من يصدر حكما . ولكى يتسع مجال الدفاع حتى يشمل القضية برمتها ويغطى كل نواحيها ، فقد اضطر الكاتب لكتابة مؤلفه « آخر أيام محكوم عليه بالاعدام » ، أو « مذكرات محكوم عليه بالاعدام » على هذه الصورة ، وأن يحذف من موضوعه ومن أجزائه جميعا الحادث نفسه والدافع اليه ، والظروف الخاصة والشخصية ، وكل ماله صلة بالحادث ، واسم المذنب ، مكتفيا بالدفاع عن قضية شخص ما،محكوم عليه بالاعدام ، ونفذ فيه الحكم لجريمة ما فى أى يوم من الايام

وسوف يكون من دواعى سعادة المؤلف لو أنه استطاع ـ دون أن يستعين بشىء آخر غير تفكيره ـ أن يتعمق فى موضوعه كل التعمق كى يجعل قلبا تنزف منه الدماء تحت بصر رجال القضاء ،ولو انه تمكن من أن يبعث الرحمة فى قلوب

أولئك الذين يحسبون أنهم عدول ، وسوف يكون من دواعى سروره لو أنه استطاع بتعمقه فى نفسية القاضى أن ينجح أحيانا فى ان يجد فيه انسانا !

وعندما نشر هذا الكتاب منذ ثلاث سنوات ، تخيل بعض الناس أن من واجبهم ان يعلنوا على الملأ أن فكرته ليست فكرة المؤلف ، فقال فريق منهم انه قد أخذها عن كتاب انجليزى ، وذهب فريق آخر الى انه قد اقتبسها عن كتاب أمريكى ، وتلك لعمري سنة مرذولة تدفعنا الى البحث عن أصول الاشياء بعيدا جدا ، على مسيرة آلاف الاميال ، وتجعل النهير الذى يغسل ماؤه شارعك يأتى من منابع النيل !

ومما يدعو للاسف أن أصل هذا الكتاب ليس انجليزيا ولا أمريكيا ولا صينيا ، فالمؤلف لم يأخذ فكرته من كتاب ما ، فهو لم يألف أن يذهب باحثا عن أفكاره بعيدا كل هذا البعد ، وانما أخذها من حيث تستطيعون جميعكم أن تأخذوها او من حيث يحتمل أن تكونوا قد لمستموها بالفعل (اذ من منا لم يحلم ، أو يفكر ، فيما بينه وبين نفسه ، فى آخر يوم فى حياة شخص محكوم عليه بالاعدام ؟) .. من الشارع ، بكل بساطة ، أو من الميدان العام ، أو من ساحة الاعدام . انه التقط هذه الفكرة الكئيبة وهو يمر من هناك ذات يوم .. التقطها وهى ملقاة على الارض فى بركة من الدماء ، تحت سلاح المقصلة الاحمر الرهيب !

وكلمـــا كان يذاع حكم بالاعـــدام فى باريس ، تبعـــا لقضـــاة محكمة النقض فى أيام الخميس الكئيبـــة ، كانت هذه الفكرة الأليمة تعود الى المؤلف وتستولى على نفسه ، فى كل مرة كان يسمع فيها تلك الصيحات المبحوحة التى تجمع المتفرجين وتؤلبهم حول ساحة الاعدام ، وهى تمر من تحت نوافذ بيته . نعم ، كانت هذه الفكرة تلح عليه فتملأ رأســه بما فيها من جنود البوليس والجلادين والجماهير ، وتنقل الى مشاعره الآلام الاخيرة التى يقاسيها البائس المحتضر ســاعة بساعة ، فتقول له : انهم فى هذه اللحظة يجعلونه يعترف أمام القسيس .. وفى هذه اللحظة ، يقصون له شعره .. وفى هذه اللحظة ، يوثقون يديه !

وكانت هذه الافكار ترغم المؤلف المسكين ـ وهو شــاعر مرهف الحس رقيق الشعور ـ على ان يقول كل ذلك للمجتمع الذى تشغله شئونه المعتادة ، فى الوقت الذى تتم فيه هــذه العملية البشعة ، وكان هــذا الخاطر يطارده ويهز عواطفه ، وينتزع وحى الشعر من أعماق نفسه ان كان يعالج كتابته ويقتل أبياته على لسانه وهى بعد لم تر النور ! نعم ، كانت هذه الفكرة تحاصره وتلح عليه ، وتملأ راسه ونفسه فتعطل كل أعماله ، وتعترض سبيله فى كل شىء . وكان الامر بالنسبة اليه عذابا اليما يبدأ مع مطلع النهار ، ثم يستمر بعد ذلك مع عذاب المذنب البائس الذى كان يمتد حتى الســاعة الرابعة صباحا . وعندئذ فقط ، وبعد أن يتنفس الفجر ، كان فى

وسع المؤلف أن يتنفس وأن يجد فى نفسه شيئا من الحرية !

وأخيرا ، شرع المؤلف ذات يوم فى كتابة هذا الكتاب ، وكان ذلك ـ على ما يعتقد ـ فى اليوم التالى لاعدام « دولباخ » ، فخف عنه كربه منذ ذلك الحين ، وأصبح ضميره يوحى اليه انه ليس متضامنا مع العدالة فى كل مرة ترتكب فيها احدى هذه الجرائم العامة التى يسمونها تنفيذ حكم الاعدام ، ولم يعد يحس على جبينه بقطرة الدماء التى تسقط من ساخة الاعدام على رأس كل فرد من أفراد المجتمع

ومع ذلك فان هذا كله ليس كافيا ، فالتبرؤ من الجريمة شيء حسن ، ولكن الافضل منه منع اراقة الدماء . ولهذا ، فلن يعرف المؤلف هدفا أسمى ولا أسلم ولا أنبل من هذا الهدف ، الا وهو الاسهام فى الغاء عقوبة الاعدام ، ومن ثم فانه يضم تمنياته وجهوده بكل قواه ، الى جهود الرجال الكرماء فى كل الامم ، الذين يعملون جاهدين منذ عدة أعوام من أجل اسقاط المقصلة ، وهى الشيء الوحيد الذى لاتجتثه الثورات . وسوف يسر المؤلف أن يأتى بدوره ، وهو الرجل الضعيف ، ليضرب ضربته معاونا فى هدم آلة الاعدام التى تسلط منذ قرون عديدة على رءوس الناس

ب

لقد ذكرنا منذ لحظة ان المقصلة هى البناء الوحيد الذى لاتقوضه الثورات ، والواقع أنه يندر أن تبخل الثورات بدم

البشر ، فهى تأتى لتغير وتعدل من نظم المجتمع وأوضاعه ، ومن ثم تكون عقوبة الاعدام من الامور التى لاتتنازل عنها الا بصعوبة بالغة

ولكننا سوف نعترف مع ذلك بأنه اذا كانت هناك ثورة قد بدت لنا مجيدة ، وتستطيع حقا أن تلغى عقوبة الاعدام ، فان هذه الثورة هى ثورة يوليو ،اذ يبدو لنا فى الواقع انه من واجب أكثر الحركات الشعبية تسامحا فى العصر الحديث أن تلغى هذه العقوبة البربرية التى أنشأها لويس الحادى عشر وريشليو وروبسبير (١) ،وان تنص فى القانون على عدم جواز اهدار حياة الانسان . نعم ، ان ثورة يوليو عام ١٨٣٠ كانت جديرة بتحطيم مقصلة عهد الارهاب التى كانت قائمة منذ عام ١٧٩٣

لقد رجونا ذلك لحظة ، ففى شهر أغسطس من عام ١٨٣٠ ، كان فى وسع المرء أن يستنشق فى الجو كثيرا من الشفقة والكرم ، وكانت ترفرف فوق الجماهير روح جميلة من الرقة والمدنية ، وكنا نشعر بأن قلوبنا تتفتح وهى تحس باقتراب مستقبل باسم ، حتى بدا لنا أن عقوبة الاعدام قد ألغيت بالفعل دفعة واحدة باتفاق عرفى عام ، شأنها شأن غيرها من الامور التى كانت قد ضايقتنا أشد المضايقة !

---

(١) ريشيليو أحد الوزراء الفرنسيين قبل الثورة . أماروبسبير فهو أرهابي من رجال الثورة الفرنسية

ان الشعب كان قد تخلص من آثار العهد البائد فى فرح غامر ، والمقصلة اثر دام من هذه الآثار ، وقد حسبنا أننا تخلصنا منها وأنها حرقت مع ما حرق ، وظللنا لعدة أسابيع نثق بالمستقبل فى سذاجة ، مؤمنين بأنه لا يمكن الاعتداء على الحياة كما لا يمكن الاعتداء على الحرية

والواقع أنه ما كاد ينقضى شهران حتى بذلت محاولة تهدف الى تحقيق الامنية المثالية العظمى ، التى طالما تمناها « سيزار بونيزانا » ، الا وهى الغاء عقوبة الاعدام وجعلها حقيقة قانونية ، غير أن هذه المحاولة كانت تفتقر ، للأسف ، الى المهارة والحذق ، بل انها كانت خبيثة تقريبا ، فقد تمت بقصد خدمة مصلحة أخرى غير المصلحة العامة

اننا نتذكر أنه فى شهر أكتوبر من عام ١٨٣٠ ، بعد أن استبعد البرلمان اقتراح دفن نابليون تحت تمثال العامود بعدة أيام ، أخذ ممثلو الأمة جميعا يبكون وينتحبون ، وطرحت مسألة الحكم بالاعدام على بساط البحث ، وسوف نذكر بعد بضعة أسطر فى أية مناسبة طرح هذا الموضوع للبحث ، فبدا عندئذ أن قلوب هؤلاء المشرعين جميعا قد امتلأت فجأة بشفقة عجيبة ، حتى أنهم كانوا يتزاحمون على الكلام ، وعلى العويل والنحيب ورفع أيديهم نحو السماء ! .. الحكم بالاعدام ! .. يا اله السموات والارض ! .. يا له من شيء بشع شنيع !

نعم .. هكذا كانوا يقولون ، ومنهم هذا النائب العام

الشيخ الذى ابيض شعره وهو يرتدى « الروب » الاحمر ، والذى سلخ كل حيـــاته وهو يأكل الخبز مغموســا فى دم الاتهــامات ، فقد لبس من فوره مسوح العطف والشــفقة ، واشهد الآلهة على أنه يمقت المقصــلة . ولم يخل المنبر لمدة يومين كاملين من خطب تفيض بالبكاء والنحيب حتى بدا الأمر وكأنه « محزنة » ندب فيها الندابون ، ورددوا فاصـــلا من التراتيل الحزينة مع « تخت » كبير ، كبير جدا ، بمصاحبة المجموعة « الكورس » المكونة من كل هؤلاء الخطبــاء الذين يشغلون الصفوف الاولى من المجلس النيابى ، والذين يرسلون انغاما جميلة للغاية فى الايام المجيدة . لقد غنى كل منهم على طريقته ولم يكن هنــاك نقص فى اى شىء . وكان الأمر يثير العاطفة ويحرك الشفقة الى أقصى حد ، خاصة وان جلسة الليل كانت أبوية رحيمة ، تتقطع لها نياط القلوب ، تماما كما تتقطع لدى رؤية الفصل الخامس من مسرحية « لاشوسيه » ، وكانت الدموع تترقرق فى أعين الجمهور الطيب القلب الذى كان لا يفهم شيئا من كل ذلك

فعلام كانت تدور مناقشتهم عندئذ ؟ الغاء عقوبة الاعدام ؟

نعم .. ولا !

وهذا هو الواقع :

ان اربعــة رجال من المجتمع الراقى ، اربعــة رجال ذوى مراكز مرموقة من صنف هؤلاء الرجال الذين نصــادفهم فى صالونات الطبقة العليا ، والذين قد تتبادل معهم بضع كلمات

مؤدبة ، أقول ان أربعة من هؤلاء الرجال كانوا قد حاولوا ، فى الدوائر السياسية العليا ، احدى هذه الضربات الجريئة التى يسميها « بيكون » جرائم ، ويطلق عليها « ماكيافيللى » اسم « مشاريع » ولكن القانون فى قسوته على الجميع يعاقب على هذه الجرائم او المشاريع بالاعدام . وكان هؤلاء الرجال الاربعة سجناء وأسرى فى قبضة القانون يحرسهم ثلثمائة جندى فى سجن « فانسين » .. فما العمل وكيف العمل ؟.. لاشك فى أنكم تفهمون أنه يستحيل ان يرسل الى ساحةالاعدام اربعة رجال مثلى ومثلك .. أربعة رجال من الطبقة الراقية لا يمكن أن يساقوا الى ساحة الاعدام فى عربة « كارو » وهم مقيدون بالحبال الغليظة فى بشاعة ، وظهر كل واحد منهم الى ظهر الآخر ، ومعهم هذا الموظف الذى يجب ألا يذكر اسمه قط ! .. آه لو كانت هناك مقصلة من خشب ثمين !

آه !.. ليست هناك اذن وسيلة لانقاذ رءوسهم الا بالغاء عقوبة الاعدام !

◻

وهنا تحرك البرلمان وبدأ فى العمل !

أرجو ان تلاحظوا أيها السادة أنكم حتى الأمس القريب كنتم تنعتون هذا الالغاء بأنه مجرد نظرية مثالية خيالية ، وبأنه حلم وشعر وجنون . ولاحظوا كذلك أن هذه ليست أول مرة يحاولون فيها لفت نظركم الى العربة « الكارو » ، والى الحبال الغليظة ، والى الآلة الحمراء البشعة : انه لمن

الغريب حقا أن تسترعى كل هذه الاشياء الرهيبة انتباهكم الآن فجأة على هذا النحو !

صمتا ! فالأمر ليس كما تظنون ! فنحن لا نلغى عقوبة الاعدام من أجلك أنت أيها الشعب ، بل من أجلنا نحن النواب الذين قد نصبح وزراء فى يوم من الايام . فنحن لا نريد أن تعض المقصلة الطبقات العليا ، ومن أجل ذلك فاننا نحطمها ، وحسنا نفعل اذا كان عملنا هذا فيه ارضاء للجميع ، غير أننا لم نفكر الا فى أنفسنا ونحن نقوم به ! فلنطفىء النار اذن ، ولنلغ الجلاد بسرعة ، ومعه قانون الاعدام

وهكذا ، فان مزيجا من الانانية ينحرف بخير المشروعات الاجتماعية ويفسدها . انه العرق الاسود يجرى فى الرخام الابيض ، ويسير فى كل موضع فيه فيظهر فجأة ، وفى اية لحظة ، تحت « أزميل » النحات . أن تمثالكم أيها السادة يجب أن يعاد صنعه من جديد

ونحن لا نشعر يقينا بأننا فى حاجة الى أن تعلن ذلك هنا ، فلسنا من الذين كانوا يطالبون برءوس الوزراء الاربعة . فبعد القبض على هؤلاء الرجال ذوى الحظ العاثر ، تحول لدينا الغضب والاشمئزاز اللذان كنا نشعر بهما بسبب مؤامرتهم الى شفقة عميقة كما حدث لدى الجميع . لقد انعمنا النظر فى الافكار العتيقة التى تربى عليها بعضهم ، وفى عقل رئيسهم ذى الافق الضيق ، وهو انسان متعصب ومتآمر عنيد ممن اسهموا فى مؤامرات عام ١٨٠٤ ... ابيض شعره قبل

الاوان ، وهو فى الظل والرطوبة فى سجون الدولة ، كما فكرنا فى كل الظروف الحتمية التى كانت تحيط بموقفهم المشترك ، وفى استحالة وقف هذا الانحدار السريع الذى كانت الملكية قد دفعت نفسها اليه بأقصى سرعتها فى الثامن من اغسطس عام ١٨٢٩ ، وفكرنا كذلك فى مدى الاثر الذى يحدثه شخص الملك ذاته فى أنفسنا ، وهو أثر لم نكن نشعر به الا قليلا جدا حتى ذلك الحين ، وفكرنا خاصة فى العزة والكرامة اللتين كان احدهم يبسطهما على الآخرين فى محنتهم كمعطف ثمين

لقد كنا من الذين كانوا يتمنون لهم مخلصين أن تنقذ حياتهم ، وكنا على اهبةالاستعداد لاننضحى فى هذا السبيل، فلو حدث المستحيل ونصبت لهم،المشنقة يوما فى ساحة الاعدام ، فاننا لانشك فى أنه سوف تحدث مظاهرات شعبية عنيفة لتهدم هذه المشنقة ، وسوف يكون كاتب هذه السطور مع تلك المظاهرات المقدسة اذ يجب علينا أن نقول كذلك فى صراحة ، انه اذا قورنت كل المشانق فى أوقات الازمات السياسية ، فان المشنقة السياسية تكون أبشعها وأكثرها شؤما وأوفرها سما وأجدرها بالازالة على الاطلاق . ان هذا الضرب من المقصلة تنبت جذوره فى الشارع ، ويترعرع فى وقت وجيز لينتشر فى الارض . ففى وقت الثورة ، خذوا حذركم لاول راس يهوى ، لانه يفتح شهية الشعب

لقد كنا اذن متفقين شخصيا مع الذين كانوا يريدون انقاذ

رءوس الوزراء الاربعة ، كنا متفقين معهم على أية صورة من الصور ، وذلك لأسباب عاطفية وأخرى سياسية ، وانما كنا نؤثر فقط أن يتخير البرلمان فرصة غير هـذه لاقتراح الغاء عقوبة الاعدام

ولو أنهم اقترحوا هذا الالغاء لا بمناسبة سقوط أربعة وزراء من قصر التويلرى (قصر الحكم) الى سجن « فانسين » ، بل من أجل أى مجـــرم عادى ، من أجل واحـــد من هؤلاء البائسين الذين لاتدقق النظر اليهم حينما يمرون على مقربة منك فى الطريق ولا تبادلهم الحديث ، وتتجنب الاحتكاك بهم بغريزتك لقذارة ملبسهم ، هؤلاء التعساء الذين كانت طفولتهم جريا فى العراء وهم حفاة فى الوحل عند تقاطع الشـــوارع ، يرتجفون من البرد شتاء على قارعة الطريق ، ويستدفئون على دخان المطابخ ، مطابخ مطعم « مسيو فيفور » العظيم ، الذى تتناول طعامك فيه ، وهم ينقبون هنا وهناك عن كسرة من الخبز فى وسط القمامة ويمسحونها قبل ان يتبلغوا بها ، ثم ينبشون عن غيرها . وليس لهم من تســـلية الا ذلك المنظر المجانى ، منظر عيد الملك ، ومنظر المحكوم عليهم بالموت ، وهم فى ساحة الاعدام ، وهذا المشهد الاخير بالمجان كذلك . يالهم من بائسين مساكين يدفع بهم الجوع الى السرقة ، وهـــذه تدفع بهم الى الباقى ..! انهم أطفال محرومون فى مجتمع قاس تأخذهم أصلاحيات الاحداث فى سن الثانية عشرة ، والليمان فى الثامنة عشرة ، وتتلقفهم المشنقة فى سن الاربعين . انهم

سيئو الحظ ، وكان فى وسعكم بمدرسة ومصنع أن تجعلوا منهم أناسا طيبين صالحين ، أناسا نافعين ذوى خلق كريم . انهم سيئو الحظ لأنكم لاتدرون ماذا تفعلون بهم الا أن تلقوا بهم كما يلقى المرء بحمل لانفع فيه ، تارة فى ليمان « طولون » وأخرى فى مقبرة « كلامار » ، لتسلبوهم الحياة بعد أن تكونوا قد سرقتم الحرية منهم .. فلو أنكم اقترحتم الغاء عقوبة الاعدام من أجل واحد من هؤلاء الرجال ، لكانت جلستكم اذن مجيدة حقا ، وعظيمة وجليلة ومقدسة وجديرة بالتبجيل .

فمنذ أن دعا قساوسة « ترانت » العظماء الخارجين على الكنيسة الى الاجتماع بهم باسم الرحمة الالهية ، اذ كانوا يأملون هدايتهم ، لم نر قط جماعة من الرجال قدمت للعالم ما هو أكثر عظمة ونبلا وشفقة ببنى البشر من هذا المشهد . لقد كان من الواجب دائما على أولئك الذين هم أقوياء وعظماء حقا أن يعنوا بالضعيف ، وأن يهتموا بأمر الصغير . ان جمعية من البراهمة كانت تكون جميلة لو أنها عنيت بأمر الفقير المعدم ، وقضية الفقير المعدم هنا ليست الا قضية الشعب . فلو أنكم كنتم ألغيتم عقوبة الاعدام من أجل الشعب ، دون أن تنتظروا حتى تكون لكم مصلحة فى ذلك ، لأتممتم بهذا ماهو أكثر من العمل السياسى ، ولأتممتم عملا اجتماعيا بمعنى الكلمة

لكنكم لم تنجزوا حتى مجرد عمل سياسى بمحاولتكم الغاء عقوبة الاعدام ، لا التماسا لهذا الالغاء لذاته ، ولكن لانقاذ أربعة وزراء بائسين ضبطوا متلبسين بتهمة التآمر لاحداث

انقلاب !

فماذا حدث ؟ انكم قد أثرتم الريب والشكوك ، نظرا لأنكم لم تكونوا مخلصين . وعندما رأى الشعب أن الغرض هو خداعه غضب على هذه المسألة برمتها وحدث أمر جدير بالملاحظة ، فقد تحمس الشعب لحكم الاعدام مع انه هو الذى يتحمل عبئه كله ! ان افتقاركم الى المهارة هو الذى جعل الامور تسير على هذا النحو ، فأنتم قد أسأتم الى هذه المسألة اساءة طويلة الأمد بمعالجتكم اياها على هذا النحو من اللف والدوران وعدم الصراحة . لقد كنتم تمثلون رواية هزلية فصفر النظارة لكم

ومع ذلك ، فقد أخذت بعض النفوس هذه المهزلة مأخذ الجد ، وصدر الامر ، بعد جلسة البرلمان المشهورة مباشرة ، من حامل الاختام — وهو رجل شريف — الى رؤساء النيابة بايقاف تنفيذ أحكام الاعدام الى أجل غير مسمى . وكان ذلك خطوة كبرى فى الظاهر ، وتنفس أعداء عقوبة الاعدام الصعداء ولكن فرحتهم لم تتم . كانت وهما قصير الأمد

وانتهت محاكمة الوزراء ، ولا أعرف الحكم الذى صدر عليهم ، وأنقذت رءوسهم الاربعة ، واختير لهم سجن « هام — Ham » كحل وسط بين الموت والحرية . وبعد أن تمت كل هذه الاجراءات ، تلاشى كل أثر للخوف من نفوس القادة من رجال الحكم ، ومع ذهاب الخوف تلاشت كل المشاعر الانسانية ، ولم يعد أحد منهم يذكر الغاء عقوبة الاعدام ..

ولما لم يعد من مصلحتهم اثارة هذه المسألة ، عاد الخيال خيالا ، وارتدت النظرية الى سيرتها الاولى ، وانقلب الشعر شعرا كما كان من قبل

ومع ذلك ، كان لا يزال هناك فى السجون بعض البائسين من المحكوم عليهم بالاعدام العاديين ، كانوا يتنزهون فى ردهات السجون منذ خمسة اشهر أو ستة ، وهم يستنشقون الهواء وقد هدأت أنفسهم منذ اثارة هذه المسألة فى البرلمان ، ووثقوا من أنهم سوف يعيشون وقد اعتقدوا أن ايقاف التنفيذ هذا معناه العفو عنهم .. ولكن ، صبرا لحظة !

□

حقا لقد كان الجلاد خائفا للغاية ، ففى اليوم الذى كان قد سمع فيه المشرعين يتحدثون عن الانسانية وعن حب الغير وعن التقدم ، ظن انه ضائع لا محالة ! وبلغ من تعاسته أنه اختبأ تحت مقصلته وهو لايحس بأدنى سرور أو ارتياح تحت شمس شهر يوليو ، كبومة فى وضح النهار ، وهو يحاول جاهدا ان يجعل الناس ينسون أمره، وكان يسد أذنيه ، ولا يجرؤ على أن يلتقط أنفاسه .. لم يعد يراه أحد منذ ستة أشهر ، ولم يكن أحد يدرى ما إذا كان ميتا أو لا يزال على قيد الحياة ، ومع ذلك فقد أخذ الرجل يطمئن رويدا رويدا فى ظلماته ، وكان ينصت الى ما كان يدور فى البرلمان فلم يعد يسمعهم ينطقون باسمه ، ولم يعد يسمع تلك الكلمات الرنانة التى كانت قد ألقت فى قلبه الرعب . لم تعد ثمة تعليقات بليغة عن كيفية

معالجة الجرائم والعقوبات ، فقد كانوا يهتمون بأشياء أخرى على شيء من الخطورة فيما يختص بمصلحة المجتمع ، كطريق يصل بين قريتين ، أو منح اعانة لممثلى دار الأوبرا ، أو زيادة الميزانية الهزيلة بمقدار مائة ألف من الفرنكات !! لم يعد يفكر فيه أحد ،. هو : قاطع الرءوس !

وما أن رأى الرجل ذلك حتى اطمأن قلبه ، وأطل برأسه خارج الجحر مقلبا بصره فى جميع الاتجاهات ، ثم خطا الى الامام خطوة أو خطوتين ، كما يفعل أى فأر من فئران الشاعر « لافونتين » ، وبعد ذلك خاطر بأن خرج تماما من مخبئه ،

ثم قفز على المقصلة واخذ يعدها ويمسحها ويصلح من شأنها ، ثم لمعها وداعبها وجربها « على الفاضى » وهو يعد نفسه بأن يقدم عملا لهذه الآلة القديمة التى علاها الصدأ وأتلفتها البطالة !!

وتلفت الجلاد خلفه فجأة ، وأمسك بأحد هؤلاء المنكودى الحظ كما سمحت له الصدفة فى أول سجن صادفه ، أحد هؤلاء الذين كانوا يعولون على الحياة ، أمسك به من شعره وجذبه اليه ، ثم جرده من ملابسه ، وشد وثاقه ، واعدمه .. وهكذا عادت عقوبة الاعدام !

ان هذا كله شيء شنيع .. ولكنه التاريخ !

نعم ، لقد كانت هناك فترة مدتها ستة أشهر اجل فيها تنفيذ عقوبة الاعدام ومنحت لمسجونين تعساء ، ضوعفت لهم العقوبة مجانا على هذا النحو بجعلهم يأملون فى الحياة ويتعلقون

بها ، ثم .. بلا سبب .. ولغير ضرورة ، ولمجرد اللذة ألغى وقف تنفيذ أحكام الاعدام ذات صباح ، وقطعت رءوس كل هؤلاء الناس فى برود شـــــديد وبطريقة منظمة .. آه ! .. يا الهى ! هل لى أن أسألكم : ما ضرنا نحن جميعا لو عاش هؤلاء الرجال ؟ ألا يوجد فى فرنسا هواء يكفى الجميع ؟

ونظرا لان كاتبا صغيرا في الحكومة كان لايعنيه الامر، نهض من على مقعده ذات يوم ، وهو يقول : « هيا بنا ! .. لم يعد أحد يفكر فى الغاء عقوبة الاعدام . لقد حان الوقت لنعود الى قطع الرقاب بالمقصلة ! » لابد أن يكون قد حدث فى قلب هذا الرجل أمر وحشى ، أمر بالغ الشناعة !

ونرى لزاما علينا أن نقول من ناحية أخرى انه لم تصاحب تنفيذ أحكام الاعدام ظروف أكثر بشـــاعة قط الا منذ الغاء وقف تنفيذ أحكام الاعدام ، الذى صدر الامر به فى شهر يوليو ـ ولم تكن قصص ما يجرى فى ساحة الاعدام قط أكثر اثـــارة للنفوس ، مما يبرهن تماما على مقت الناس لعقوبة الاعدام .. ان ازدياد فزع الناس من هذا الحكم انما هو عقاب عـــدل موجه لأولئك الذين أعادوا تطبيق قانون الدم ، فليلقوا جزاء وفاقا على ما صنعوه

▱

ويجب أن نذكر هنا مثلين أو ثلاثة امثال لما حدث فى بعض وقائع الاعدام ، مما ينضح بشاعة وقذارة . يجب علينا أن نرهق أعصاب زوجات وكلاء النيابة ، فالمرأة لها أثرها أحيانا فى

في نهاية شهر سبتمبر الماضى على وجه التقريب ، وفى أواسط فرنسا ـ ولا يحضرنا تماما المكان ، واليوم ، واسم المحكوم عليه ، ولكننا سوف نعثر على هذا كله اذا حدث أن شك أحد أو عارض فى صحة هذه الواقعة ـ ونعتقد أن ذلك حدث فى « باميه » . فقد دخلوا على رجل فى سجنه حيث كان يلعب الورق فى هدوء ، فأعلنوه بأنه سوف يموت بعد ساعتين ، فأرسل هذا القول رجفة قاسية فى كل أوصاله . ذلك أنهم كانوا قد نسوا أمره لستة أشهر فلم يعد يفكر فى الموت .. وحلقوا للرجل لحيته ، وقصوا له شعره ، وأوثقوه بالحبال ، وجعلوه يعترف أمام القسيس . ثم اركبوه عربة « كارو » بين أربعة من الجنود ، ومروا به خلال الجماهير حتى وصلوا الى مكان التنفيذ

والى هنا ، فالأمر يهون ، اذ أنه يتم على هـذا النحو . ولما بلغ الرجل مكان الآلة الرهيبة تلقاه الجلاد من القسيس ، وحمله وربطه على المقصلة ، ثم جعله يطاطىء رأسه وهوت السكين . لقد تحرك المثلث الحديدى الثقيل فى صعوبة ثم هوى وهو يحك فى مجراه ! وهنا بدأت البشاعة ، فقد أخذت السكين تحز فى رقبة الرجل دون أن تذبحه ، فصاح صيحة بشعة . وحار الجلاد فى الامر فرفع السكين ثم تركها تهوى من جديد . فعضت رقبة المسكين مرة أخرى ولـكنها لم تقطعها . فصرخ المحكوم عليه ، وصاح الجمهور كذلك ، فرفع

الجلاد السكين مرة ثالثةوهو يأمل خيرا فى الضربةالثالثة ولكن .. بلا جدوى !

ان الضربة الثالثة قد فجرت نهرا ثالثا من الدماء أخذ يجرى على رقبة المحكوم عليه ولكنها لم تطح برقبته !

والآن فلنوجز : ان السكين قد رفعت ثم هوت خمس مرات وخمس مرات جرحت المحكوم عليه ، وخمس مرات صرخ الرجل من أثر الضربة ، وهز رأسه الحى وهو يطلب الرحمة ! فثار الشعب وأمسك بأحجار ليرجم بها الجلاد التعس ، فهرب الجلاد تحت المقصلة واحتمى خلف خيول الجنود .. ولكن هذه ليست نهاية المأساة ..

ان المحكوم عليه حينما وجد نفسه وحيدا على المقصلة ، اعتدل على اللوحة الخشبية وظل واقفا هناك بمنظره المفزع ، وهو يقطر دما ويسند رأســه نصف المقطوع ، الذى كان يتدلى على كتفه ، وراح يطلب فى صياح مبحوح أن يفكوا وثاقه!

فغمرت الشفقة قلب الجمهور ، وهم بأن يقتحم نطاق الجنود وان يخف لنجدة هذا البائس الذى نفذ فيه حكم الاعــــدام خمس مرات . وفى تلك اللحظة بالذات ، صعد على المقصلة صبى الجلاد ، وهو شاب فى نحو العشرين من عمره ، وأمر المحكوم عليه بأن يستدير كى يفك وثاقه ، ثم استغل وضع هذا الرجل المشرف على الموت ، الذى كان يسلم نفسه اليه بسلامة نية ، فوثب على ظهره وشرع يقطع له فى صعوبة ما كان قد تبقى من رقبته بسكين جزار !

ان هذا قد حدث ورآه الناس رأى العين .. نعم ، رأوه رأى العين !

وكان هناك بحسب نص القانون ، قاض يشهد تنفيذ هذا الحكم . وكان يستطيع باشارة منه ان يوقف كل شيء ! فماذا كان يفعل هذا الرجل اذن وهو فى عربته بينما كانوا يغتالون انسانا ؟ ماذا كان يفعل معاقب القتلة هذا فى الوقت الذى كانت عملية اغتيال تجرى فى وضح النهار ، أمام عينيه ، وتحت خيول عربته ، وتحت زجاج نافذتها ؟

لم يقدم القاضى للمحاكمة ! ولم يقدم الجلاد للمحاكمة ، ولم تحقق اية محكمة فى هذا الافناء الوحشى لجميع القوانين فى شخص مخلوق مقدس من مخلوقات الله !

ح

فى عصر همجية القانون الجنائى فى القرن السابع عشر ، ابان حكم « ريشيليو » وحكم « كريستوف فوكيه » ، حينما أعدم السيد « دى شاليه » أمام الناس فى ميدان بمدينة «نانت» على يدى جندى غير ماهر ضربه أربعا وثلاثين ضربة (١) بآلة حادة يستعملها صانع البراميل فى تجميع الخشب ، وذلك بدلا من أن يضربه ضربة واحدة بسيف ، بدا هذا على الاقل أمرا غير مشروع فى نظر برلمان باريس ، فأجرى تحقيقا وأقيمت قضية . ولئن كان ريشيليو لم يعاقب ، ولئن كان

---

(١) يقول لا بورت انها اثنتان وعشرون ضربة ويقول « أوبرى » أنها أربع وثلاثون .. وكان مسيو « دى شاليه » يصرخ فى كل مرة حتى الضربة العشرين !

كريستوف فوكيه لم يعاقب ، فان ذلك الجندى قد لقى جزاءه . كان هذا ظلما دون شك ، ولكنه ظلم يكمن العدل وراءه !

أما هنا، فلم يحدث شيء على الاطلاق . لقد وقع هـذا الحادث بعد شهر يوليو فى وقت سادت فيه الطباع الرقيقة والتقدم ، وبعد عام واحد من « محزنة » البرلمان المشهورة على عقوبة الاعدام . حسنا ! ان هذا الحادث لم يذكره احد على الاطلاق ، ونشرته صحف باريس كأنه حكاية عادية ، ولم يحاكم أحد بسببه ولم يوجه الاتهام الى أحد !

كان كل ماعرفوه أن المقصلة قد اتلفت عمدا ، أتلفها شخص كان « يريد أن يضر بمنفذ أحكام القضاء » ، كان هذا الشخص هو أحد خدم الجلاد ، وقد دبر هذه المكيدة لينتقم من سيده لانه كان قد طرده من خدمته

لم تكن هذه الا مكيدة خادم ، فلنتابع سرد أمثلتنا اذن :

. وفى مدينة « ديجون » ، سيقت امرأة منذ ثلاثة أشهر الى ساحة الاعدام ، (تصوروا .. امراة !) ، وفى هذه المرة أيضا لم تؤد سكين الدكتور جيوتان (١) عملها كما يجب ، فلم تقطع الرأس تماما بحيث ينفصـل عن الجسم . وعندئذ ، تعلق مساعدو الجلاد بقدمى المرأة ، وفصلوا رأس البائسـة عن جسدها وهى تطلق صرخات مدوية ، بأن انتزعوها انتزاعا

---

(١) يعنى المقصلة التى عرفت فى فرنسا منذ الثورة الفرنسية بهـذا الاسم ، نسبة الى مخترعها الدكتورجيوتان ـ المترجم

بقوة الشد والجذب

وفى باريس ، نعود الى الوقت الذى كان يجرى فيه تنفيذ عقوبة الاعدام فى السر . فنظرا الى أنهم كانوا منذ شهر يوليو لايجرءون على تنفيذ احكام الاعدام فى ساحة الاعدام ، والى انهم كانوا خائفين ، وبما أنهم كانوا جبناء ، فان هـذا هو ماحدث :

لقد أخذوا أخيرا من سجن « بيستر » رجلا محكوما عليه بالاعدام ، يدعى « ديزاندريو » على ما أعتقد ، ووضعوه فى شيء يجر على عجلتين ، مغلقا من كل نواحيه كسلة ، ومقفلا قفلا محكما بالاقفال والمزاليج ، ثم ساروا به دون جلبة وبلا جمهور يرافقه ، بين جنديين أحدهما أمامه والآخر من خلفه ، ثم القوا بالسلة والرجل الذى فيها فى وسط الحقـول خارج باريس ، فيما وراء حى « سان جاك » .. وكانت الساعة الثامنة صباحا فى مطلع النهار عندما وصلوا الى هنـاك ، وكانت هناك مقصلة « طازجة » لم تستعمل بعد أعـدت خصيصا لهذا الرجل ، وكان الذين شهدوا هذا المنظر بضعة غلمان صغار اجتمعوا على كومة أحجار قريبة حول تلك الآلة التى نصبت على غير انتظار .. ثم أخرج الرجل من السلة فى سرعة ، ودون أن تتاح له اية فرصة ليلتقط أنفاسه ، ثم قطع راسه خلسة فى صورة تنطوى على الخيانة والعار ! .. وهذا هو ما يسمونه « عملا رسميا وعاما من أعمال العدالة الكبرى» فيالها من سخرية دنيئة !

فكيف اذن يفهم رجال الملك كلمة المدنية ؟ وفى اى عصر نعيش ؟ ان العدالة قد انحطت حتى أضحت حيلا وخططا فياللشناعة !

ان الشخص المحكوم عليه بالاعدام اذن شيء مخيف للغاية يخشى المجتمع بأسه ، ويأخذ حذره منه الى هذا الحد وعلى هذا النحو !

ومع ذلك ، فلنكن منصفين ! ذلك أن تنفيذ عقوبة الاعدام لم يكن بطريقة سرية تماما . ففى الصباح ، نادى المنادون كالمعتاد ، وبيع حكم الاعدام فى شوارع باريس وميادينها .. ويبدو أن هناك اناسا يعيشون من بيع هذه الاشياء ، فهل تسمعون ؟ انهم يتخذون من جريمة انسان سيىء الحظ ومن عقابه وعذابه واحتضاره سلعة تباع الورقة منها بدرهم ! فهل فى وسعكم أن تتخيلوا شيئا أكثر قبحا من هذا الدرهم الملطخ بالدم ؟ فمن ذا الذى يلتقطه اذن من بينكم ؟

تلك وقائع كافية ، كافية أكثر مما ينبغى .. أليس هذا كله شيئا مروعا ؟ فماذا لديكم تستطيعون به أن تؤيدوا عقوبة الاعدام ؟

اننا نلقى عليكم هذا السؤال بصورة جدية ، نلقيه عليكم كى تجيبونا عنه . اننا نوجهه الى علماء الجريمة لا الى المثقفين الثرثارين ، فنحن نعلم أن هناك من يؤيد عقوبة الاعدام ، لالشيء الا ليخالف بذلك رأى الغير كما يفعل فى كل شيء . وان هناك آخرين لايحبون عقوبة الاعدام الا لانهم يكرهون زيدا أو عمرا

ممن يهاجمونها ، فهى بالنسبة اليهم مسألة كلام ... مسألة أشخاص .. مسألة أفراد يسمون فلانا وفلانا . هؤلاء هم الحساد ، وكثيرون منهم من المشرعين ومن كبار الفنانين ، ومثلهم كمثل « جوزيف جريبا » فى معارضته « لفيلانجييرى » ، وكمثل « توريجيانى » فى نقده « لمايكل انجلو » ، وكمثل «سكوديرى» فى تحديه للكاتب المسرحى « كورنى »

اننا لا نتوجه بالحديث الى هؤلاء الناس ، وانما الى رجال القانون بمعنى الكلمة ، والى المفكرين وذوى المنطق السليم ، الى أولئك الذين يحبون عقوبة الاعدام لانها عقوبة الاعدام ، يحبونها لجمالها وطيبتها وحسنها !

هيا اذن .. فليدلوا بدلوهم ، وليقدموا لنا حججهم

يقول الذين يحاكمون غيرهم ويصدرون عليهم الاحكام ان عقوبة الاعدام أمر ضرورى ، أولا : « لان من الضرورى أن نبتر من المجتمع عضوا قد أساء اليه من قبل وقد يسىء اليه بعد ذلك » . فاذا كان الامر مقصورا على ذلك فالسجن المؤبد يكفى . فلماذا الموت اذن ؟ أتفترضون أنه يمكن الفرار من السجن ؟ حسنا .. فلتشددوا الحراسة . فان كنتم لاتثقون من متانة القضبان الحديدية ، فكيف تتجرءون على أن تحبسوا وراءها الوحوش الضارية ؟

ليس ثمة مايدعو الى وجود الجلاد مادام السجان يكفى

ولكنهم يستطردون فيقولون : « ان المجتمع يجب أن يثأر لنفسه وأن يعاقب . » كلا ، لا هذا ولا ذاك ، فالثأر شىء

فردى ، أما العقاب فبيد الله »

والمجتمع بين اثنين : العقاب فوق المجتمع ، والانتقام أقل منه . الاول كبير للغاية ، والثانى صغير للغاية ، وكلاهما لا يلائمه . ومن واجب المجتمع ألا « يعاقب لينتقم » ، بل أن « يصلح ليصل الى ماهو أحسن » .. فغيروا اذن صيغة علماء الاجرام على هذا النحو ، فنحن نفهمها ونقبلها على هذا التعديل

يبقى السبب الثالث والاخير ، وهو نظرية ضرب المثل : « يجب أن يضرب المثل الرادع ! .. يجب الارهاب بمنظر المصير الذى ينتظر المجرمين ، نلقى به الخوف فى قلوب الذين يميلون الى محاكاتهم ! » .. ان هذه العبارة تكاد تكون بالحرف الواحد تلك الجملة الخالدة التى يرددها ممثلو الاتهام فى « النيابات » الخمسمائة الموجودة فى أنحاء فرنسا مع تغيير طفيف رنان !

حسنا .. اننا ننكر أولا أن هناك مثلا وعبرة ، ننكر أن منظر التعذيب يأتى بالنتيجة المرجوة منه ، فهو بدلا من أن يهذب الشعب ، يضعف من روحه المعنوية ويقتل لديه كل شعور ، وبالتالى كل فضيلة . والادلة على هذا كثيرة ، يزدحم بها استدلالنا لو أردنا أن نذكرها . ومع ذلك فسوف نسوق واقعة من بين ألف واقعة ، ذلك لأنها وقعت حديثا جداً ونحن نكتب ، منذ عشرة أيام فقط ، وهى ترجع على التحديد الى يوم ٥ مارس الماضى ، يوم المهرجان

فقد حدث فى مدينة « سان بول » ، عقب اعدام رجل يدعى « لويس كامى » مباشرة ، وكان قد ارتكب جريمة حريق، حدث أن جاء نفر من الملثمين ليرقصوا حول المشنقة وهى لاتزال ساخنة ، وكان ذلك فى يوم من أيام الاعياد المسيحية ! .. فاضربوا المثل اذن التماسا للعبرة !

نعم ، نعم .. انكم تستمسكون بنظريتكم الروتينية فى المثل رغم التجربة . فلنعد اذن الى القرن السادس عشر ، وعليكم أن تكونوا مرعبين حقا ! أعيدوا مختلف أنواع التعذيب. .أعيدوا الينا « فاريناتشى » والاشخاص الذين كانوا يكلفون رسميا بالتعذيب .. أعيدوا لنا الصلب والحرق وتمزيق الاوصال واقتلاع الاظافر وقطع الاذن ودفن المرء حيا وغلى أعضاء الجسم والمرء حى يعيش !! أعيدوا لنا عند كل ناصية فى شوارع باريس ، منظر الجلاد البشع كأنه حانوت جديد مفتوح كبقية الحوانيت ، ومزود بصفة مستمرة باللحم الآدمى الطازج ! أعيدوا الينا ساحة الاعدام التى كانت مهيأة فى « مونفوكون » بقواعدها الحجرية الست عشرة ، وجلاديها الجالسين و « بدروماتها » المملوءة بالعظام ، وألواح التعذيب الخشبية ، و « كلاباتها » ، وسلاسلها ، وخوازيقها ، وغربانها التى تنهش جثثها العفنة ! ! نعم ، أعيدوا ساحة الاعدام هذه مع المشانق الملحقة بها ورائحة الجثث النتنة التى كانت رياح الشمال الغربى تنقلها وتحملها معها على طول حى « التامبل » فى ضواحى باريس ! ! أعيدوا الينا صبى جلاد باريس العظيم فى قوته

وسطوته واستمراره وجبروته ! .. حسنا ! .. هذا هو مثلكم بصورة مكبرة ! ! هذه هى عقوبة الاعدام مفهومة فهما جيدا . انها طريقة للتعذيب على نطاق واسع ، وهـذا هو الشىء الشنيع المروع !

أوه ! افعلوا ما يفعلونه فى انجلترا ففى انجلترا ـ وهى بلاد التجارة ـ يأخذون مهربا الى ساحل « دوفر » حيث يشنقونه ضربا للمثل ، ولضرب المثل ايضا يتركونه معلقا فى حبل المشنقة ! ولكن ، نظرا الى أن تقلبات الجو قد تتلف الجثة ، فانهم يغلفونها فى عناية بقماش مدهون بالقطران ، وذلك حتى لايضطرهم الأمر إلى تجديد هذا الغلاف الا أقل عدد ممكن من المرات .. فياله من بلد يتوخى الاقتصاد ! بلد يطلون فيه المشنوقين بالقطران !

ومع هذا ، فان ذلك فيه شىء من المنطق ، فهو أكثر الطرق انسانية لفهم نظرية المثل

ولكن انتم .. أصحيح أنكم جادون حقا ، اذ تعتقدون أنكم تضربون مثلا حين تقطعون رقبة انسان بائس ، بطريقة تعسة فى ركن قصى مهجور من مشارف العاصمة ؟ قد يكون هذا مقبولا لو أنه تم فى ساحة الاعدام ، وفى وضح النهار ! ولكن ، ان يحدث ذلك فى حقول ضاحية من ضواحى باريس .. فى « سان جاك » ؟ .. وفى الثامنة صباحا والنهار لم يكد يطلع بعد ؟ من ذا الذى يمر من هناك ؟ ومن ذا الذى يرى ذلك ؟ ومن ذا الذى يعرف أنكم تقتلون رجلا فى ذلك المكان ؟ ومن

ذا الذى يشك فى أنكم تضربون مثلا هنالك ؟ مثلا لمن ؟ لاشجار الطريق طبعا !

افلا ترون اذن أن تنفيذكم لحكم الاعدام علنا يتم خلسة ؟ أفلا ترون اذن أنكم تختبئون ؟ وأنكم تخافون وتخجلون من فعلتكم ؟ وأنكم تتمتمون على نحو يدعو الى السخرية قائلين ان هذه هى العدالة ؟ انكم فى الواقع خجلون وجلون أيها السادة ، ومزعزعون قلقون ، وغير واثقين من أنكم على حق ، وان الشك الذى لدى الجميع قد تسرب الى نفوسكم ، وانكم تقطعون الرءوس على سبيل « الروتين » ودون أن تعرفوا تماما ما تفعلون ! أفلا تشعرون فى قرارة أنفسكم أنكم قد فقدتم على الاقل الشعور الاخلاقى والاجتماعى برسالة الدم التى كان اسلافكم القضاة العتاة يؤدونها بضمير مطمئن للغاية ؟ وفى الليل ؟ أفلا تتقلبون على وسائدكم اكثر مما كانوا يتقلبون ؟ ان آخرين من قبلكم قد أمروا بتنفيذ العقوبة القصوى ، عقوبة الاعدام ، غير أنهم كانوا يعتقدون انهم على حق ، وانهم عدول وأنهم يحسنون صنعا . ان « جوفينيل ديزرسان » كان يعتقد انه قاض ، و « ايلى دى توريت » كان يعتقد انه قاض ، و « لو باردومون » و « لارينيى » و « لافوماس » كانوا يعتقدون انهم قضاة .. أما أنتم .. أما أنتم فلستم موقنين تماما فى قرارة أنفسكم أنكم لستم قتلة !

انكم تتركون ساحة الاعدام الى ضاحية « سان جاك » ، وتفرون من الجمهور الى العزلة ، ومن النهار الى الغسق ،

ولا تقومون بما تقومون به فى ثقة وثبات . ولست أتردد فى ان اقول لكم : انكم تختبئون !

هذه هى كل الاسباب التى تنتحلونها لعقوبة الاعدام قد تحطمت اذن ، وهذا هو منطق ممثلى الاتهام بأسره قد أصبح عدما ، وهذه كل مرافعات النيابة قد فندت فصارت رمادا . ان اقل لمسة من المنطق لابد أن تذيب كل تفكير معوج .

انه لاينبغى اذن أن يأتينا رجال الملك بعد الآن يطالبوننا ــ نحن المحلفين ــ برءوس جديدة ، نحن الرجال ، وهم يرجوننا فى صوت يداعبنا باسم المجتمع الذى تجب حمايته ، وباسم الثأر للشعب ، أن نضمن لهم ضرب المثل الرادع . ان هذا كله ليس الا بلاغة وكلاما أجوف ، ليس الا مجرد بالون منفوخ تكفى وخزة بسيطة من دبوس ، كى تحيله الى لا شىء ، اذ ليس وراء هذه الثرثرة الحلوة غير قسوة القلب والشراسة والهمجية ، والرغبة فى اظهار التحمس للعمل وضرورة كسب العيش . اصمتوا أيها السادة ، فاننا نحس بمخالب الجلاد تحت أنامل القاضى الحريرية !

انه ليشق علينا أن نفكر فى برود فى أمر مدع عام جرىء . انه رجل يكسب عيشه بارسال الآخرين الى المشنقة ، فهو المورد الرسمى لساحات الاعدام ! ومن ناحية أخرى ، فهو رجل يزعم لنفسه الاسلوب الادبى الجميل ، وهو ذلق اللسان ، أو يحسب انه كذلك ، ويردد عند الحاجة بيتا أو بيتين من الشعر اللاتينى قبل أن يسوق انسانا الى الموت ، ويحاول جاهدا أن

يحدث فى مستمعيه التأثير الذى يريده ، وهو شديد العناية بأمر كرامته ـ يا للشقاء ! هذا فى الوقت الذى تكون فيه حياة الآخرين فى الميزان ! ان لهذا المدعى العام نماذج ، نماذج خاصة يتعذر على المرء أن يبلغ مستواها ، مثل «بلاز» ، و«مارشانجى» تماما كما يكون للشعراء نماذج تحتذى مثل « راسين » او « بوالو » . وفى المناقشات التى تدور فى المحكمة ، تراه يجنح دائما الى ناحية المقصلة ، ولا غرو فهى دوره ، وهى شغله الشاغل . والاتهام الذى يوجهه انما هو عمله الادبى الذى يزينه بالاستعارات ، ويعطره بالنصوص ، يستشهد بهـا كى يظفر باستحسان الحاضرين فى الجلسة ، وينتزع اعجـاب السيدات ، ولديه ذخيرة من الافكار الشائعـة التى لا تزال جديدة تماما على البيئات الريفية ، وله بلاغته فى التعبير ، وأسلوبه الرقيق المصطنع الذى يشبـه فى رقته أساليب الكتاب . انه يكره الكلمة الخالية من الاستعارة ، مقتا يدانى المقت الذى يضمره لها شعراؤنا المنتمون الى مدرسة «دوليل» فلا تخشوا اذن أن يسمى الاشياء بأسمائها فذلك لن يحدث ، اذ أن لديه قناعا كاملا من النعوت والصفات لكل فكرة يمكن أن تثيركم وهى مجردة عارية . ان فى وسعه أن يجعل الامر المفزع مقبولا ، ويخفف من حدة سكين المقصلة ، ويوازن الميزان ، ويغلف السلة الحمراء (١) فى غلالة رقيقة من الاستعارات . انه رقيق ومتحفظ ، فهل تتصورونه بالليل فى مكتبه ، وهو يتأنق

---

(١) اى سلة المقصلة التى يسقط فيها راس المحكوم عليه عند قطعه

فى اعداد هذه الخطبة التى ستنصب بسببها المشنقة بعد ستة اسابيع ؟ هل ترونه وهو يعرق دما وماء كى يحاصر رأس متهم فى أسوأ بند من بنود القانون ؟ وهل تبصرونه وهو «ينشر» رقبة انسان بائس بمنشار قانون أسىء صنعه ؟ الم تلاحظوا كيف ينقع ثلاثة نصوص أو أربعة سامة فى فيض من العبارات البليغة ، كى يعبر بها ، ويستخرج منها بجهد جهيد موت انسان ؟ أفلا يحتمل أن يكون الجلاد قاعدا القرفصاء عند قدميه فى الظلام ، تحت مكتبه وهو جالس يكتب ، وأنه قد يكف عن الكتابة بين آن وآخر ، ليقول له كما يقول السيد لكلبه : « اهدأ اهدأ ، فسوف تنال عظمتك ! »

ومن ناحية أخرى ، فقد يكون رجل الادعاء هذا فى حياته الخاصة رجلا شريفا ، وأبا عطوفا ، وابنا صالحا ، وزوجامخلصا، وصديقا وفيا .. الى غير ذلك مما تذكره العبارات الطيبة المنقوشة على لوحات القبور فى مدافن « لاشيز »

فلنأمل اذن أن يأتى اليوم الذى يلغى فيه القانون هـذه الوظائف المحزنة ، وجو حضارتنا وحده هو المسئول عن القضاء على عقوبة الاعدام فى فترة معينة من الزمن

ويغلب على ظننا فى بعض الاحيان أن الذين يدافعون عن عقوبة الاعدام لم يفكروا فيها فيحسنوا التفكير . ولـكن ، ضعوا اذن بعض الجرائم فى الميزان ، فهذا القانون العنيف يخول للمجتمع الحق فى أن يسلب من الانسان شيئا لم يمنحه اياه ، وهذه العقوبة انما هى أكثر العقوبات التى لايمكن اصـلاح

نتائجها وأشدها استعصاء على الاصلاح !

ذلك أن أمامكم أمرين لا ثالث لهما :

فاما أن يكون الرجل الذى تقضون على حياته لا أسرة له ولا أهل ولا روابط فى هذا العالم ، وفى هذه الحالة لا يكون قد تلقى تربية أو تعليما أو عناية ما ، بنفسه أو بقلبه .. فبأى حق اذن تقتلون هذا اليتيم البائس ؟ أتعاقبونه لانه كان يزحف فى طفولته على أرض لاسند له فيها ولا مرشد ولا معين ؟ انكم تعاقبونه اذن على العزلة التى تركتموه يهيم فيها على وجهه ، وتجعلون من مصيبته هذه جريمة ، وهو الذى لم يعلمه أحد ماذا كان عليه أن يفعل ! انه رجل جاهل ، والخطأ ليس خطأه ولكنه خطأ القدر .. انكم تعاقبون بريئا !

واما أن هذا الرجل ذو أسرة . فهل تحسبون عندئذ أن الضربة التى تقطعون بها رقبته لا تصيب الا اياه ؟ وأن أباه ، وأمه ، واولاده لن يقطروا دما كذلك ؟ كلا ، فأنتم بقتله انما تقطعون رقبات أسرة بأسرها . فأنتم هنا كذلك تعاقبون الابرياء !

ان عقوبة الاعدام عقوبة شاذة عمياء ، على أى وجه نقلبها نجدها تصيب البرىء !

اسجنوا هذا الرجل ، هذا المذنب الذى له أسرة ، فسوف يستطيع وهو فى سجنه أن يتابع العمل من أجل ذويه ، اذ كيف يكون فى وسعه أن يعولهم وأن يجعلهم يعيشون وهو راقد فى قاع قبره ؟ ترى هل تفكرون دون أن تأخذكم الرجفة فيما

سيئول اليه امر هؤلاء الاولاد الصغار ، والبنات الصغيرات الذين تنتزعون منهم والدهم ، أعنى لقمة العيش ! أم هـــل تعولون على هذه الاسرة لتزودوا بها الليمان بعد خمسة عشر عاما ؟ .. آه ! يا للابرياء المساكين !

عندما يصدر حكم بالاعدام على عبد رقيق فى المستعمرات ، فأنهم يدفعون لصاحبه ومالكه تعويضا مقداره ألف فرنك ! ماذا أيها السادة ؟ انكم تعوضون خسارة السيد ولا تعوضون الاسرة شيئا ! وهنا أيضا بالله عليكم ، الا تنتزعون رجلا من بين ذويه أصـــحاب الحق فيه ؟ أو ليس هو ملـكا لوالده ولزوجته ولابنائه الى حد يبلغ فى القداسة أكبر كثيرا من درجة ملكية السيد لعبده ؟

لقد سبق لنا أيها السادة أن اتهمنا قانونكم هذا بأنه اغتيال ، وهانحن أولاء نتهمه الآن بأنه سرقة

وثمة شىء آخر : فهل فكرتم فى روح هذا الرجل ؟ وهل تجرءون على ازهاقها بمثل هذه السرعة ، وبمثـل هـــذا الاستخفاف ؟ فيما مضى ، على الاقل ، كان هناك شىء من الايمان فى قلوب الناس ، وفى اللحظة الحاسمة كانت نفحة الدين المنبثة فى الهواء تلين أكثر القلوب قسوة وصلابة ، فكان المحكوم عليه فى نفس الوقت تائبا يكفر عن ذنب قد ارتكبه ، وكان الدين يفتح أمامه عالما ، فى نفس اللحظة التى كان المجتمع فيها يغلق فى وجهـه عالما آخر . كانت النفوس جميعا تثق بالله ، ولم تكن المشنقة الا حدا من حدود السماء . أما الآن ،

فما هو الامل الذى تضحونه فى مشنقة لا تؤمن بها الغالبية العظمى من الجماهير ؟ .

ليست هذه من غير شك الا « أسبابا عاطفية » كما يقول بعض الذين يزدرون العاطفة ولا يستمدون منطقهم الا من رءوسهم ، غير أنها فى نظرنا هى أفضل الاسباب ، ونحن غالبا ما نفضل الاسباب العاطفية على العقلية . ويجب علينا الا ننسى من جهة أخرى أن النوعين يتساندان على الدوام ، فكتاب « قانون الجرائم »(١) مأخوذ من كتاب « روح القوانين » (٢) ، و « مونتسكيو » هو الذى أنجب « بيكاريا »

ان المنطق معنا ، والعاطفة معنا ، والتجربة تؤكد وجهة نظرنا كذلك . ففى الدول النموذجية حيث ألغيت عقوبة الاعدام ، أخذ مجموع الجرائم الكبرى يقل باطراد عاما بعد عام ، فأدخلوا هذا فى حسابكم

ومع ذلك ، فاننا لا نطالب فى الوقت الحاضر بالغاء عقوبة الاعدام الغاء تاما وبطريقة فجائية على النحو الطائش الذى اتبعه مجلس النواب ، بل نريد ، على العكس ، أن نجرب كل المحاولات ، وأن نتخذ كافة الاحتياطات ، وأن نلزم فى هذا الحذر كل الحذر . ومن جهة أخرى ، فاننا لانريد الغاء عقوبة الاعدام فحسب ، وانما نريد كذلك تعديلا شاملا لكل أنواع العقوبات من أولها الى آخرها ، من الحبس البسيط الى

(١) تأليف « بيكاريا »
(٢) تأليف « مونتسكيو »

المقصلة ، مع ملاحظة ان الزمن يعتبر احد العوامل التى تجب مراعاتها فى عمل كهذا ، حتى يتم على الوجه الاكمل . وفى نيتنا أن نكتب المزيد فى هذا الموضوع شارحين الطرق والافكار التى تبدو فى نظرنا عملية ممكنة التطبيق . ولكن ، اذا استثنينا الغاء حـكم الاعدام جزئيا فى حالات تزييف النقد ، والحريق ، والسرقة المصحوبة بظروف مشددة ، الى غير ذلك ، فاننـا نطالب منذ الآن ، وفى جميع القضايا الكبيرة ، بأن يلتزم رئيس المحكمة بأن يسأل المحلفين هذا السؤال : هل ارتكب المذنب جريمته بدافع من العاطفة أو بدافع المنفعة ؟ فاذا جاء رد المحلفين بأن « المتهم قد ارتكب ما ارتكب بدافع العاطفة » فيجب الا يصدر عليه حكم بالاعدام .. فهذا كفيل على الاقل بأن يبعد عنا بعض أحكام الاعدام التى تثير نفوسنا ، وكان ذلك خليقا بأن ينقذ حياة كل من « أولباخ » و « ديباكير » ، وهو خليق كذلك بأن ينقذ رقبة من يقف موقف « عطيل » (١) othello فى المستقبل

ومن جهة أخرى ، فاننا يجب الا نخدع ، فمسألة عقوبة الاعدام هذه تنضج يوما بعد يوم ، وسوف يحلهـا المجتمع بأسره ، كما نفعل ، قبل انقضاء وقت طويل . فليحذر علماء الجريمة المعاندون ، فقد اخذت أحكام الاعدام تتناقص منذ قرن من الزمان ، وأخذت تجنح تقريبا نحو شىء من اللين

---

(١) اشارة الى جريمة عطيل فى رواية شكسبير المعروفة عندما قتل زوجتـه بسبب الغيرة المتأججة

والحنان ، وهذا نذير شيخوخة واضمحلال . انه علامة من علامات الضعف ، علامة موت قريب . لقد انتهى زمن تعذيب المتهمين وربطهم على العجلة ، وولى عصر صلب المحكوم عليهم .. بل ان المقصلة ذاتها عبارة عن تقدم ! .. ان هذا لشيء عجيب ! لقد كان « السيد جيوتان » (١) انسانا خيرا حقا !

نعم .. ان هذه الآلة ذات الاسنان والتروس الرهيبة التى التهمت عددا ضخما من الرءوس ـ آلة « فارمناتشى » و « فوجلانس » و « دولانكر » و « ايزاك لوازيل » و «أوبيد» و « ماشوه » ـ هذه الآلة قد بدأت تضمحل .. بدأت تهزل .. بدأت تموت ! !

هاهى ذى ساحة الاعدام لا تريدها ، لان هذه الساحة تريد أن ترد لنفسها اعتبارها .. أن شاربة الدماء العجوز قد سلكت فى شهر يوليو سلوكا حسنا (٢) ، فهى تريد منذ الآن أن تحيا حياة أفضل ، وأن تظل جديرة بصنيعها الاخير (٣) .. ان الحياء يعود اليها ، وهى التى كانت قد حلت محل المشانق من ثلاثة قرون ، فهى تخجل من مهنتها السابقة ، وتود أن

---

(١) الدكتور « جيوتان » مخترع المقصلة وقد عرفت باسمه

(٢) كناية عن أن المقصلة لم تقتل أحدا فى ذلك الشهر بعد أن صدر الامر بأيقاف تنفيذ كل أحكام الاعدام الى اجل غير مسمى كما سبقت الاشارة الى ذلك ـ المترجم

(٣) أى بعملها الصالح فى شهر يوليو

تفقد اسمها البشع . انها تطلق الجلاد .. وتغسل الدم من فوق « بلاطها »

وفى هذه الساعة ، تنفذ عقوبة الاعدام خارج باريس ! فلنقلها هنا اذن بصراحة ، فخروجها من باريس يعنى خروجها من المدنية

ان جميع الاعراض فى صالحنا ، ويبدو كذلك أن هذه الآلة البشعة ، أو بالاحرى هذا الوحش المصنـــــوع من الخشب والحديد ، والذى هو تحفة الدكتور « جيـــوتان » يبدو أن هذه الآلة تغدر وتقـــاوم . اننا اذا نظرنا من زاوية معينـــة الى هـــذا العدد من أحـــكام الاعـــدام الرهيبة التى نفـــذت وسردنا تفاصيلها آنفا ، لوجدنا أنها تعتبر دلالات ممتـــازة ، فالمقصلة تتردد وتحجم وتقصر فى تأدية وظيفتها ، وها هو ذا بناء عقوبة الاعـــدام العتيد العتيق بأسره قد أخـــذ يتفكك ويتداعى

وسوف ترحل هذه الآلة البغيضة من فرنسا ، فنحن نقدر ذلك تقديرا ونعول عليه ، وهى سوف ترحل عرجاء ، باذن الله ، لأننا سنحاول جاهدين أن نوجه اليها ضربات قاصمة

فلتذهب اذن عند قوم آخرين ، لتذهب عند شعب همجى يقبل أن يستضيفها

لقد كان البنـــاء الاجتماعى يرتكز فيمـــا مضى على ثلاث قواعد هى : القسيس ، والملك ، والجلاد . ومنذ زمن بعيد ، ارتفع صوت يقول : « لقد ذهب سلطان الأساقفة ! » ...

وفى السنوات الاخيرة صاح صوت آخر يقول : « ان الملوك ذهبوا ! » .. والآن ، حان الوقت ليرتفع صوت ثالث ويقول: « ان الجلاد راحل ! »

وهكذا ، يكون المجتمع القديم قد انهار حجرا بعد حجر ، وتكون العناية الالهية قد قوضت أركان الماضى بأسره

ان الذين ندموا على تقلص نفوذ الدين ، استطعنا أن نقول لهم : ان الدين باق ، والذين يندمون على ذهاب الملوك نستطيع أن نقول لهم : ان الوطن باق . أما الذين سيندمون على ذهاب الجلاد فليس لدينا ما نقوله لهم

ولا يحسبن أحد أن النظام سوف يختفى باختفاء الجلاد ، فسوف لاتتداعى عمد المجتمع الجديد لأن هذا المفتاح البشع المشئوم ينقصها ، وليست المدنية الا سلسلة من التغييرات المتتابعة ، فماذا أنتم واجدون عندئذ ؟

انكم ستشهدون تغيير العقوبات ، وسوف يدخل قانون المسيح الرحيم أخيرا فى اللوائح المعمول بها فى المحاكم ويشع من نوره عليها . اننا سننظر الى الجريمة على أنهـــا مرض ، وسوف يكون لهذا المرض أطباؤه الذين ســـيحتلون أماكن قضاتكم ، ومستشفياته التى ستحتل أماكن ليماناتكم .. ان الحرية والصحة ستجتمعان معا

نعم ، اننا سنصب البلسم والزيت حيث كان يطبق الحديد والنار . وسوف نعالج هذا المرض بالرحمة والاحسان بعــد أن كان يعالج بالغضب والانتقام

وسوف يكون ذلك بسيطا ورائعا حقا
فالاحسان يحل مكان الانتقام
والرحمة تحل محل القتل
وهذا كل ما نهدف اليه

فى ١٥ مارس عام ٨٣٢

الفصل الأول

قضيتي

فى سجن « بيستر »

محكوم على بالاعدام !

آه ! هاقد مضت على خمسة أسابيع وأنا أقيم وحدى مع هذه الفكرة ، وحدى دائمـا ، أتجمد رهبـة لوجودها معى ، وأرزح تحت وطأتها على الدوام !

وقديما ، كنت رجلا كأى رجل آخر . وأقول « قديما » لان هذه الاسابيع الخمسة تبدو لى وكأنها دهر طويل ! كانت لدى فى كل يوم فكرة ، بل فى كل ساعة ، وفى كل دقيقة ،وكانت نفسى الغنية الشابة حافلة بالنزوات والتصورات ، تتسلى بأن تسردها على واحدة بعد أخرى ، بلا ترتيب وبلا نهاية ، وهى تطرز بالنقوش التى لا تنتهى هذا القماش الرفيع المتين الذى تنسجه الحياة

كان رأسى وقتئذ عامرا بالفتيات الشابات ، وبمـلابس المطارنة البديعة ، وبالمعارك الرابحة ، والمسارح التى تغمرها الضوضاء والاضواء . وكان عامرا كذلك بالفتيات الصغيرات وبنزهات فى ظلام الليل الداجى تحت أغصان شجر الكستناء الطويلة . لقد كان فى خيالى عيد دائم وكنت أستطيع أن أفكر فيما أريد فى أى وقت .. فقد كنت حرا !

أما الآن فانى أسير . فجسمى مكبل بالحديد فى زنزانة ،

ونفسى ســجينة فى فــكرة مروعة داميــة لا ترحم ! ولم يعد لدى سوى فكرة واحدة ، سوى اقتناع واحد ويقين واحد: انى محكوم على بالاعدام !

ومهما فعلت ، فان هذه الفكرة الرهيبة هنا دائمــا ، الى جوارى ، وكأنها شبح جهنمى من الرصاص يقف غيورا بمفرده أمامى أنا البائس ، ويواجهنى وجها لوجه ، فيطرد عنى كل تسلية ويهزنى هزا عنيفا بيدين فى مثل برودة الثلج كلمــا أردت أن أدير رأسى أو أن أغمض عينى . ان هذه الفــكرة المفزعة تتسلل الى بكل الطرق ، فى الوقت الذى تريد نفسى فيه أن تهرب منها ، وتمتزج كنغمة رهيبة بكل الالفاظ التى توجه الى ، وتلتصق بى فى أسوار زنزانتى الكئيبة ، وتطاردنى فى يقظتى ، وتتجسس على فى منامى المضطرب ، ثم تظهــر مرة أخرى فى أحلامى فى صورة سكين !

لقــد استيقظت الآن فزعا بسببها وانا أقول فى نفسى : « انه ليس الا حلما ! » .. حسنا ! فحتى قبل أن تجد عيناى الثقيلتان متسعا من الوقت كى تنفتحا تماما لتريا هذه الفكرة المحتومة مكتوبة فى هذا الواقع المروع الذى يحيــط بى على بلاط زنزانتى الرطب المبلل ، وفى ضوء مصباحى الليــلى الخافت ، وفى نسيج ردائى الخشن الردىء ، وعلى وجــه الحارس المظلم الذى كانت « زمزميته » تلمــع من خــلال القضبان الحديدية .. حتى قبل أن تجد عيناى الثقيلتــان متسعا من الوقت لتريا كل ذلك ، فقد بدا لى أن صــوتا قد

همس فى أذنى يقول : « أنت محكوم عليك بالاعدام ! »

كان ذلك فى صبيحة يوم جميل من أيام شهر أغسطس ، وكان قد مضى على موعد بدء نظر قضيتى ثـــلاثة أيام . كان اسمى وجريمتى يجمعان خلالها فى كل صباح جمعا غفيرا من المتفرجين ، كانوا يتهافتون على المقاعد فى قاعة الجلسة كما تتهافت الغربان على جثة عفنة ! ثلاثة أيام كانت أستعراضات القضاة والشهود والمحامين ، وممثلى الاتهام باسم الملك ، تمر خلالها ثم تمر من أمامى ، فتثير السخرية تارة ، وتارة تكون دامية ، ولكنها كئيبة ومعتمة على الدوام

ولم أستطع أن أنام فى الليلتين الاولين من أثر القلـــق والرعب ، ولكنى نمت فى الليلة الثالثة من الضيق والكلل . وكنت قد تركت المحلفين وهم يتداولون فى منتصف الليل فأعادنى الحرابس الى زنزانتى حيث ســـقطت من فورى على قشها فى سبات عميق ، فى سبات النسيان . فكانت هـذه أول ساعة أصبت فيها شيئا من الراحة منذ عدة أيام

وكنت لا أزال مستغرقا فى أعماق هذا السبات عندما أتى اسجان ليوقظنى . وفى تلك المرة ، لم يكن وقع قدميه الثقيلتين بحذائه الغليظ ، ولا صليل رزمة المفاتيح التى كان يحملها دائما معه ، ولا قرقعة الاقفال الخشان ، لم يكن هذا كله كافيا لايقاظى ، وانما كان عليه أن يستعين بصوته الجهورى الخشن النبرات لينتزعنى من نومى المحموم ، وأن يقبض على ذراعى ليهزنى بيده الغليظة وهو يقول لى فى ارهاب :

ـ قم اذن !

ففتحت عينى وانتفضت مذعورا لاجد نفسى جالسا على القش ! وفى تلك اللحظة ، رأيت من خلال النافذة الضيقة المرتفعة فى زنزانتى ، قطعة السماء الوحيدة التى كان يمكننى أن اراها من بعيد ، ورأيت هذا الضوء الاصفر الذى يبدو شمسا للأعين ، التى الفت ظلام السجون .. لشدما أحب الشمس !

وتمتمت أقول للسجان :

ـ ان الطقس جميل !

فمكث الرجل صامتا لحظة دون أن يرد على بحرف ، وكأنه كان يسائل نفسه عما اذا كان هذا الذى أمامه يستحق منه ان يقول له أية كلمة ، ثم غمغم يقول فجأة فى شىء من الجهد :

ـ هذا محتمل

وبقيت بغير حركة ، وروحى نصف نائمة ، وفمى يبتسم وعيناى لا تتحولان عن هذا الشعاع الذهبى الرقيق الذى كان يزين السقف

وعدت أكرر قائلا :

ـ هذا يوم جميل

فأجابنى السجان قائلا فى حزم :

ـ نعم .. انهم ينتظرونك

فنقلتنى هذه الكلمات القليلة ، التى تشبه الخيط الذى يقطع طيران الحشرة ، فى عنف الى عالم الحقيقة والواقع .

وفجأة رأيت فى مثل وميض البرق قاعة محكمة الجنايات المعتمة ، وقفص الاتهام ، وثلاثة صفوف من الشهود تنطق وجوههم بالغباء ، والجنديين الواقفين عن يمينى وشمالى « والارواب » السوداء تتحرك هنا وهناك ، ورءوس المتفرجين تبدو كالنمل عند نهاية القاعة فى الظل ، وأعين هؤلاء المحلفين الاثنى عشر المثبتة على ، الذين سهروا بينما كنت نائما !

ونهضت من فوق القش ، وأسنانى تصطك ، ويداى ترتجفان ، ولا تعرفان أين تجدان ملابسى ، وكانت ساقاى متخاذلتين ، لا تقويان على حملى ، فتعثرت عند أول خطوة خطوتها وكأنى حمال يحمل حملا فوق طاقته ، ومع ذلك فقد تبعت السجان

وكان الجنديان فى انتظارى على باب الزنزانة . وما كدت أخرج منها حتى وضعا فى يدى قيدا حديديا له قفل صغير معقد ، اقفلاه فى عناية ، فتركتهما يفعلان ، فقد كان قيدى آلة توضع فوق آلة

واجتزنا فناء السجن الداخلى ، فبعث هواء الصباح المنعش فى أوصالى شيئا من النشاط ، ووجدت نفسى أرفع رأسى الى أعلى . كانت السماء صافية الاديم ، وكانت أشعة الشمس الدافئة التى تقطعها المداخن المرتفعة ترسم مثلثات كبارا من الضوء من فوق جدران السجن المعتمة العالية . لقد كان الجو جميلا حقا

وصعدنا سلما حلزونيا ثم مررنا خلال دهليز من بعـــده دهليز آخر ، ثم ثالث ، حتى إنتهينا الى باب منخفض فتح على الفور ، فلفح وجهى هواء ساخن تختلط فيه الضوضاء • كان هذا هو جو أنفاس المحتشدين فى قاعة محكمة الجنايات

وما كدت أبدو حتى حـــدثت ضوضـــاء صـــادرة من قعقعة الاسلحة المختلطة بأصوات الحاضرين • وتحركت المقاعد فى جلبة عالية ، وفتحت الحواجز محدثة صريرا كئيبا • وكان يبدو لى وأنا أعبر القاعة الطويلة بين كتلتين من الجماهير ، وصفين من الجنود ، أننى كنت المركز الذى ترتبط به الخيوط التى كانت تحرك كل تلك الوجوه المتيقظة المشرئبة نحوى

ولاحظت فى تلك اللحظة أنى لم أكن مكبلا بالحـــديد ، لكنى لم أستطع أن أذكر أين أومتى كانوا قد نزعـــوا عنى قيـــدى ؟

وساد عندئذ صمت عميق • وكنت قد وصلت الى مـــكانى حينما سكنت الضوضاء الصادرة من الجمهور ، فسكتت أيضا الضوضاء التى كانت تدور مع أفكارى • وفهمت من فورى فى وضوح مالم أكن أتصوره الا مشوشا غامضا منذ لحـــظات : أدركت أن اللحظة الحاسمة قد حانت وأنى أحضرت الى هناك لسماع النطق بالحكم على

وليشرح ذلك من يستطيعه منكم،فان الطريقة التى أوحت الى بهذه الفكرة لم تبعث فى نفسى الرعب ! كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها ، وضوضاء المدينة تصل مع الهواء من الخارج

دون حائل • وكانت القاعة مضيئة كما لو كان يحتفل بعرس وكانت أشعة الشمس المرحة ترسم صورا لمصاريع النوافذ هنا وهناك ، تارة طويلة جدا على أرض القاعة ومكسورة تارة أخرى عند زوايا الجدران

وكان القضاة جالسين فى نهاية القاعة وقد إرتسمت على وجوههم علامات الرضا والامتنان ، وربما كان السبب فى ذلك هو سرورهم بأنهم كانوا على وشك الانتهاء • وكان انعكاس زجاج احدى النوافذ يسقط على وجه رئيس المحكمة ويضيئه بعض الشيء فيبدو عليه شيء من الطيبة والهدوء ، بينما أخذ أحد معاونى النيابة يتبادل حديثا يغلب عليه المرح مع سيدة جميلة ترتدى قبعة وردية اللون كان قد حاباها باجلاسها خلفه مباشرة ، وكان الرجل يتحدث اليها وهو يتمسك بياقة روبه ويعبث بها

وكان المحلفون وحدهم هم الذين تبدو على وجوههم آثار التعب الشديد ، ولكن هذا فيما يبدو كان سببه أنهم قد سهروا الليل بأكمله ، وكان بعضهم يتثاءب ، ولم يكن فى مظهرهم مايدل على أنهم رجال كانوا قد قرروا لتوهم الحكم بالاعدام ، ولم أقرأ فى وجوه هؤلاء البورجوازيين الطيبين الا رغبة كبرى فى النوم

وكانت هناك أمامى نافذة مفتوحة على مصراعيها ، كنت أسمع من خلالها بائعات الزهور وهن يضحكن على رصيف نهر «السين» ، وعلى حافة ركن النافذة أدهشتنى رؤية نبتة

صغيرة صفراء يغمرها شعاع من الشـــمس وكانت تلعب مع الهواء فى ثغرة من ثغرات حجر الجدار

فكيف يمكن أن تنبت فكرة كئيبـــة بين كثير من تلك الاحساسات الجميلة ؟ . لقد كان يغمرنى الهواء والشمس فكان يستحيل على أن أفكر فى شىء آخر غير الحرية • ان الامـل كان يشع فى نفسى كما يشع من حولى ضوء النهار ، وانتظرت النطق بالحكم على وأنا مطمئن كمـــا ينتظر المرء الخـــلاص والحيـــاة

ووصل المحامى الموكل بالدفاع عنى فى خلال ذلك ، وكانوا فى انتظاره • وكان الرجل قد تناول غداء فاخرا فى شـــهية كبيرة ، وما كاد يصل الى مكانه حتى مال نحوى مبتســـما وهو يقول :

ــ اننى آمل

فأجبته فى خفة وأنا أبتسم أيضا :

ــ أليس كذلك ؟

فقال المحامى :

ــ نعم ، لست أعرف شيئا عن قرارهم بعد ، ولكنهـم قد استبعدوا فكرة سبق الاصرار دون شك ، فلن تكون هنـاك حينئذ الا الاشغال الشاقة المؤبدة

فأجبته قائلا فى سخط :

ــ ما هذا الذى تقول يا سيدى ؟ •• انى أوثر الموت مائة مـــرة !

نعم .. الموت ! ومن ناحية أخرى ، فان صوتا داخليا لا أعرفه كان يكرر فى نفسى هامسا : « ما الخطر الذى أتعرض له بقولى هذا ؟ هل سبق أن نطق من قبل بحكم الاعدام الا فى منتصف الليل على ضوء المشاعل ، وفى قاعة معتمة سوداء فى ليلة من الليالى الباردة ، ليالى الشتاء المطيرة ؟ .. ولكن .. فى شهر أغسطس ، وفى الساعة الثامنة صباحا ، وفى يوم جميل كهذا ، ومع هؤلاء المحلفين الطيبين .. كلا ، هذا مستحيل ! وكانت عيناى ترتدان لتقعا على الزهرة الصفراء الجميلة وهى تتمايل فى الشمس .. »

وفجأة ، دعانى الى الوقوف رئيس المحكمة الذى لم يكن ينتظر سوى حضور المحامى ، فوقف الجنود شاكى السلاح ووقف جميع الحاضرين فى نفس اللحظة كما لو كان ذلك قد حدث بتأثير قوة كهربائية ! وكان ثمة وجه جامد لا تعبير فيه يجلس الى منضدة فى أسفل هيئة المحكمة ، وكان هذا على ما أظن كاتب الجلسة ، الذى بدأ الكلام فأخذ يتلو القرار الذى كان المحلفون قد نطقوا به فى غيبتى . ولم تكد كلماته تطرق أذنى حتى انبثق من كل أعضائى عرق بارد واستندت الى الجدار لامنع نفسى من السقوط

وقال رئيس المحكمة يسأل المحامى :

ــ هل لديك ما تقوله يا أستاذ خاصا بتطبيق العقوبة ؟

وكنت أستطيع أنا أن أقول الكثير ، غير أن ذهنى ظل خاويا لم يخطر به شيء ، وبقى لسانى معقودا وملتصقا بحلقي

ونهض محامى الدفاع ففهمت أنه كان يحاول أن يخفف قرار المحلفين ، بأن يستبدل بحكم الاعدام العقوبة الأخرى التى كنت قد أحسست بأن كرامتى قد جرحت حينما سمعته يتحدث عنها منذ لحظة كشىء يأمله

ولابد أن سخطى كان شديدا بحيث ظهر خلال المشاعر الكثيرة التى كانت تتضارب فى خاطرى ، وأردت أن أكرر للمحامى فى صوت مرتفع ما كنت قد قلته له من قبل :

« انى أوثر الموت مائة مرة ! » ، غير أن انفاسى تقطعت ، ولم أستطع الا أن أوقفه بجذبه من ذراعه فى عنف وأنا أصيح فيه بقوة المحموم : « كلا ! »

وقاوم المدعى العام المحامى بكل قواه ، فكنت أستمع الى نضاله فى سرور ينطوى على الغفلة والغباء ! وخرج القضاة بعد لحظات ثم عادوا ثانية الى مقاعدهم ، وقرأ رئيس المحكمة نص الحكم الذى سبق أن حكم به على !

وقال جمهور الحاضرين : « محكوم عليه بالاعدام ! » .. وفى الوقت الذى كان الحراس يقودوننى فيه الى خارج قاعة الجلسة ، اندفع كل هذا الجمهور من خلفى فى دوى كأنه صوت بناء ينهار، بينما كنت أسير متعثرا فى خطواتى كالثمل وقد تملكنى الذهول ! ان ثورة كانت قد انطلقت فى نفسى منذ لحظة ، وكنت أشعر حتى صدور الحكم بأننى أستنشق الهواء ، وبأن قلبى يعيش ، وبأنى أعيش فى نفس الوسط الذى يعيش فيه غيرى من الناس . ولكنى الآن كنت أميز فى وضوح حاجزا يفصل

بينى وبين العالم ، ولم يكن يظهر لى شيء على نفس الصورة التى كان يبدو لى فيهـا من قبل : فهذه النوافذ العريضة المضيئة ، وهـذه الشمس الجميلة الحانية ، وهـذه السماء الزرقاء النقية ، وهذه الزهرة الجميلة ، كل ذلك بدا في عينى أبيض شاحبا بلون الكفن .. وهؤلاء الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا يتزاحمون من حولى ويندفعون فى طريقى كانوا يتراءون لى كالأشباح !

فى العربة السوداء

وكانت هنـــاك عربة قذرة سوداء مقفلة بقضبان من حديد تنتظرنى عند أسفل السلم .. والقيت وأنا أصعد اليها نظرة عابرة على الميدان ، فرأيت المارة يعدون نحوها وهم يصيحون قائلين : « محكوم عليه بالاعدام ! » واستطعت أن أميز من خلال السحابة التى كان يبدو لى أنها تفصل بينى وبين الأشياء ، فتاتين شابتين كانتا تتابعانى بأعين نهمات ، فقالت صغـــراهما وهى تصفق بيديها : « حسنا ! سيكون تنفيذ الحكم فيه بعد ستة أسابيع ! »

أنا محكوم على بالاعدام !

حسنا ! ولم لا ؟ انى أذكر أننى قرأت ذلك فى كتاب من الكتب لم يكن به شيء حسن سوى هذه العبارة : « ان البشر جميعا محكوم عليهم بالاعدام ، وانما يختلف وقت تنفيـــذ الحكم ! » . فماذا الذى قد تغير كثيراً اذن فى موقفى ؟

كم من أناس قد ماتوا بينما كانوا يعدون أنفسهم لحياة طويلة منذ اللحظة التى نطق فيها بالحكم على ؟ وكم من شباب حر فى أوج الصحة قد سبقنى وكان يعتزم الذهاب فى اليوم المحتوم ليرى رأسي وهو يهوى فى ساحة الاعدام ! وكم من هؤلاء

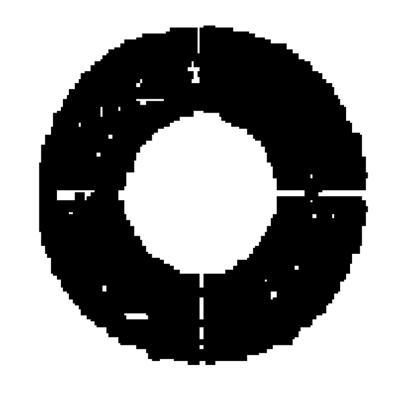
الناس الذين يمشون ويستنشقون نسيم الحرية وهم يخرجون ويدخلون على هواهم ، كم من هؤلاء سوف يسبقنى كذلك الى عالم الموت !

ثم . . على أى شىء أندم فى الحياة ؟ أهو اليوم المظلم؟ أم هو الخبز الأسود فى الزنزانة ، مع الطعام الهزيل الذى يلقى الى فى الدلو ، دلو المحكوم عليهم بالاعدام ؟ أم الغلظة والمعاملة الفظة اللتان يعاملنى بهما السجانون والحراس ، وأنا الذى ربيت تربية مرهفة ناعمة ؟ أم هو حرمانى من رؤية أى مخلوق آدمى يعتقد انى أستحق أن يبادلنى الحديث ؟ أم ان أرتجف بغير انقطاع مما فعلته ومما سيفعلونه بى ؟ أليس هذا تقريبا هو كل الخير الذى يستطيع الجلاد أن ينتزعه منى ؟

آه ! ولكن هذا لا يهم . . انه شىء فظيع !

نقلتنى العربة السوداء الرهيبة الى هنا ، فى سجن «بيستر» البشع ، وهو مبنى يبدو على مظهره بعض العظمة عند رؤيته من بعيد ، فهو يظهر فى الأفق على جبهة تل ، ويحتفظ بشىء من روعته الملكية السابقة اذا نظرت اليه من بعيد ، ولكنه يصير كوخا حقيرا عندما تقترب منه ! فأبراجه التى سقطت تحت مستواها الأصلى تجرح بمنظرها العين ، ولست أدرى أى شىء حقير مخجل لطخ واجهاته الملكية بالقذارة ، اذ تبدو كأن جدرانها مصابة بالجذام ، ونوافذه لم يبق بها زجاج ولا مصاريع ، ولكنه كتل ضخمة من قضبان حديدية متقاطعة يلتصق بها هنا وهناك وجه شاحب يبدو عليه الشرود ، وجه

لشخص محكوم عليه أو وجه لشخص مجنون !
انها الحياة من قرب !



العودة الى بيستر

ما كدت أصل الى سـجن « بيسـتر » حتى تلقفتنى أيد حديدية ، وضوعفت الاحتياطات فى الحال . فلا سكين مع الطعام ولا « شوكة » ، بل قميص المحكوم عليه فحسب ، وهو عبـارة عن كيس من التيـل الخشن ليس له كمان سجنت بداخله ذراعاى !

انهم كانوا مسئولين عن بقائى حيا ، وكنت قد استأنفت الحكم،وهذا الاستئناف قد يستغرق من ستة أسابيع الى سبعة أسابيع غالية الثمن ، وكان من المهم أن يحتفظوا بى سليما معافى لساحة الاعدام !

وعوملت فى الأيام الاولى بلطف كان يبدو لى رهيبا مفزعا ، فظرف السجان ورقته رائحة من روائح المشنقة ، ثم ما لبثوا أن تغلبت عليهم العادة لحسن الحظ فعاملونى فى غلظة كمـا يعاملون غيرى من المساجين ، ولم يعودوا يميزوننى على غير المألوف منهم بأدبهم الذى كان يجعلنى أتصور الجلاد واقفا أمامى على الدوام . ولم يكن ذلك هو التحسن الوحيد الذى طرأ على موقفى ، بل ان شبابى ، ودعتى ، وعنـاية قسيس السجن بأمرى،وبوجه خاص بعض الكلمات اللاتينية التى كنت أوجهها الى البواب فلا يفهم من أمرها شيئا ، كل ذلك قد فتح

لى باب النزهة مرة فى كل أسبوع مع المسجونين الآخرين ، وذهب بالقميص الخشن الغليظ الذى كان يشمـــل حركتى . كما أعطيت كذلك مدادا وورقا وقلما ومصباحا بعد تردد ليس بالقصير

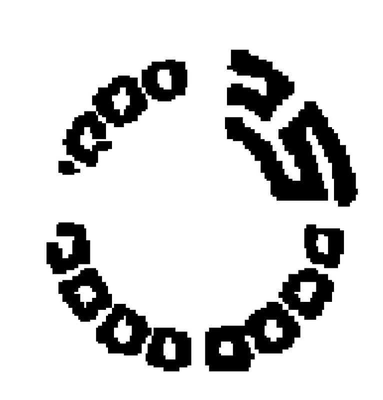
وكانوا يطلقوننى فى كل يوم أحد بعد القداس فى فناء السجن ساعة الفسحة حيث أتبادل الحديث مع المسجونين ، وكان هذا بالنسبة الى شيئا ضروريا للغاية . حقا ان هؤلاء البائسين أناس طيبون ، وهم يقصون على وقائعهم وحيلهم ، وهى أمور ترسل فى الجسم رعدة قاسية ولكنى كنت أعلم انهم يفاخرون

وكان هؤلاء المسجونون يعلموننى أن أتحدث بلغة السجون كما يقولون ، وهى لغة مكتملة النمو مشتقة من اللغة الجارية كنوع من الورم الخبيث ، أو كالسنط فى الجســـد ، لبعض ألفاظها وقع عنيف وجمال مخيف ، وذلك مثل قولهم : « انه يمشى على العنب الأحمر » ، ويعنون به أن الدم فى طريقه . وقولهم : « يتزوج الارملة » ، ويعنون به أنه يشنق كما لو كان حبل المشنقة ارملة فقدت كل أزواجها السابقين المشنوقين !

ان رأس اللص له فى السجن اسمان : « السربون » عندما يفكر ويعقل وينصح بالجريمة ، و « المقطوع » عندما يقطعه الجلاد ! وفى بعض الأحيان ، تكون ألفاظ السجن هذه شبيهة بروح المسرحية الخفيفة المرحة (الفودفيل) ، كقولهم : « شال من خيزران » (عربة « الزبال ») .. و « الكاذبة » (اللسان)! وفوق هذا ، ففى كل لحظة وفى كل مكان تسمع كلمات غريبة

وعجيبة تتسم بالقبح والقذارة ، ولا أدرى من اين تخرج ، مثل : الدرع (الجلاد) ، و «الخازوق» (الموت) ، و «الصندرة» (ساحة الاعدام)! ٠٠ ألفاظ تبدو لى كالعناكبوالابراص ،حينما يسمعها المرء تترك فى نفسه الاثر الذى يحدثه الشيء القـــذر المغبر ، وكأنها كتلة من الخرق البالية التى تنفض أمام عينيه

ومهما يكن من شيء ، فان هؤلاء الرجال يرثون لحالى ، وهم وحدهم الذين يفعلون ذلك ، اذ أن السجانين والحراس ــ ولست أحقد عليهم ــ يتحدثون ويضحكون ، ويتكلمون عنى فى وجودى وكأننى شيء يمت الى عالم الجماد !



الفصل الثانى

أيام لن تعود

مذكراتى

وقلت فى نفسى :

لماذا لا أكتب ما دامت لدى أدوات الكتابة ؟ ولكن ، ماذا اكتب ؟ انني سجين بين أربعة جدران ضخمة من الحجر العارى البـــارد الحزين ، حيث لا حرية لخطواتى ولا أفق يمتـــد أمام عينى ، ولا تسلية لى طول الوقت الا ان اتتبع بطريقة آلية ما يجرى خارج زنزانتى من خلال كوة الباب المربعة الصغيرة البيضاء ، وما كانت تعكسه أمامى مبـاشرة على الحـائط المظلم ، وكما كنت أقول منذ برهة ، فانى كنت وحدى وجها لوجه مع فكرة الجريمة والعقاب ، فكرة القتل والموت ! فهل سيكون لدى ما أقوله وأنا الذى صرت انسانا لا داعى لوجوده فى هذا العالم ؟ وماذا عساى أن أجد فى هذا الانسان الذابل الخاوى ؟

ولكن .. لم لا ؟

اذا كان كل شىء من حولى يسير على وتيرة واحدة ، ولا لون له على الاطلاق ، أفلا تضطرم فى أعماق نفسى عاصفة عاتية ، وكفاح مستمر ، ومأساة دامية ؟ ان هذه الفكرة الثابتة التى تستحوذ على نفسى تتبدى امامى فى كل ساعة وفى كل لحظة فى شكل جديد ، وهى تزداد كآبة وتلوثا بالدماء ساعة بعد

ساعة كلما اقترب المصير المحتوم ! فلماذا لا أحاول أن اقول لنفسي كل ما أحس به ، وأقص عليها ما أكابده من مشاعر عنيفة ، بعضها يحاصرني فعلا وبعضها مجهول لا يزال ينتظرني في موقفي هذا الميئوس منه الذي أجد نفسي فيه الآن

ان الموضوع غني ما في ذلك شك ، ومهما بدا لي ما تبقى من عمري قصيرا فسوف يكون في الهواجس والرعب والعذاب الاليم ، الذي يملؤه منذ هذه الساعة الى أن تحين ساعتي الاخيرة ، مايكفي لاستهلاك هذا القلم ونفاد هذا المداد كله. ومن جهة أخرى ، فان الوسيلة الوحيدة التي أستطيع بها أن أخفف بعض الشيء من آلام هذه الهواجس هي أن ألاحظها ثم أصفها ، فهذا خليق بأن يسري عني بعض التسرية

وفوق هذا ، فان ما سأكتبه هكذا قد لا يكون عديم النفع . فهذه المذكرات التي تسجل آلامي ساعة فساعة ، ودقيقة فدقيقة ، وعذابا اثر عذاب — لو أني وجدت في نفسي القدرة على تدوينها حتى اللحظة التي سوف يستحيل على جثمانيا أن أتابع كتابتها — اذ أن قصة مشاعري هذه ستبقى حتما ناقصة بلا نهاية وأن كانت كاملة من حيث طاقتي — هذه المذكرات الن تحمل في طياتها عظة كبيرة وعميقة ؟ الن يكون في هذا السجل المدون عن الفكر وهو يحتضر ، وعن الآلام التي تتزايد باستمرار .. هذا النوع من التشريح العقلي لانسان محكوم عليه بالموت .. الن يكون فيه أكثر من درس لأولئك الذين يصدرون هذا الحكم ؟

نعم .. فقد تجعلهم قراءة هـذه المذكرات أقل تسرعا ، وتحملهم على شيء من التروى فى المستقبل عندما يكون الأمر متعلقا باسقاط رأس يفكر ، رأس انســان ، فيمـا يسمونه ميزان العدالة ! قد لا يكون هؤلاء التعساء فكروا قط فى هذا التتابع البطىء لألوان العذاب التى تنطوى عليه هذه الصيغة الموجزة التي ينطق بها فى استخفاف : « الحكم بالاعدام ! » ترى هل وقفوا قط مرة والحدة ، واحدة فحسب ، عند هذه الفكرة الأليمة ليروا أن فى هذا الانسان الذى يقطعون رقبته ذكاء كان قد اعتمد على الحياة ، وأن فيه روحا لم تكن قد تهيأت بعد للموت ؟

كلا ! انهم لا يرون فى هذا كله إلا سكينا مثلثة الشكل تهوى راسيا على رقبة الشخص المحكوم عليه بالموت ، وهم يحسبون دون شك أنه لا شيء هناك بالنسبة اليه ، لا من قبل ذلك ولا من بعده !

ان هذه المذكرات سوف تظهر لهم انهم مخطئون ، فقد يتاح لها أن تنشر فى يوم من الأيام ، فتفتح أعينهم لحظات على آلام النفس التى لا يشك فيها أحد منهم . انهم يفخرون بقدرتهم على القتل دون أن يتألم الجسم تقريبا بسبب سرعة المقصلة فى انجاز مهمتها الدامية ، غير أن هذا ليس كل ما فى الأمر ، اذ ما قيمة الألم البدني اذا قيس بآلام النفس ؟

اننا لنشمئز من هذه القوانين الموضوعة على هذه الصورة التى تتحرك أنفسنا شفقة بها ،وسوف يأتى يوم تكون فيه هذه

المذكرات ، وهى الأسرار الاخيرة لانسان بائس ، قد أسهمت فى هذا المضمار . . اللهم الا اذا عبثت الريح بعد موتى بهذه الاوراق الملطخة بالوحل فى فناء السجن ، أو لصقها سجان على شكل نجوم فى نافذة مكسورة الزجاج فى حجرته فتتعفن هناك تحت قطرات المطر

وسواء أكان ما اكتبه هنا يمكن أن يكون يوما ما نافعا لغيرى ، أم انه أوقف القاضى وهو يهم بالنطق بالحكم ، أم أنقذ البائسين من أبرياء ومذنبين ، انقذهم من الاحتضار الذى حكم به على . . فلماذا كل ذلك ؟ . . وما فائدته ؟ . . وما أهميته ؟ . . ماذا يهمنى .ن تقطع رءوس أخرى بعد أن يكون رأسى قد قطع ؟ . . هل استطعت حقا أن أفكر فى هذه الفكرة الجنونية ، فى أن اقذف بالمقصلة على الأرض واهدمها بعد أن أكون قد صعدت عليها ؟ هل لى أن أسألكم قليلا : ماذا سيعود على من تحطيم المقصلة بعد أن أذهب ضحية لها ؟

آه ! أن الشمس ، والربيع ، والحقول المملوءة بالأزهار ، وانطيور التى تستيقظ فى الصباح ، والغيوم ، والأشجار ، والطبيعة ، والحرية ، والحياة . . كل ذلك لم يعد لى منه شىء !

رباه ! . . انه أنا الذى يجب انقاذه ! هل صحيح أن هذا غير ممكن ؟ وانه يجب أن أموت غدا ، بل وربما اليوم ؟ . . هل صحيح .ن الأمر هكذا ؟ . . يا الهى ! ان هذه الفكرة الرهيبة لتدفعنى الى التفكير فى تحطيم رأسى على جدار زنزانتى

والآن ، فلنعد ما تبقى لى :

مهلة مدتها ثلاثة أيام عقب النطق بالحـــكم لتقـــديم طلب الاستئناف الى محكمة النقض • وثمانية أيام من النسيان فى نيابة الاستئناف ترسل بعدها المستندات ـ كمـــا يقولون ـ الى مكتب الوزير • وخمسة عشر يوما من الانتظار لدى الوزير الذى لايحس بوجود هذه الاوراق ولا يعلم من امرها شيئا،ومع ذلك فالمفروض أنه يحيلها بعد فحصها الى محكمة النقض ، حيث يتم ترتيبها وترقيمها وتسجيلها ، لان المقصلة لديها عمل كثير ، ويجب الا يمر بها كل انسان الا فى دوره ... ثم خمسة عشر يوما للتأكد من أنه لم يحدث لك امتياز ما خارج حدود القوانين واللوائح

وأخيرا ، تنعقد المحكمـــة عادة فى يوم خميس ، فترفض عشرين طلب استئناف دفعة واحدة ، ثم تعيدها الى الوزير الذى يرسلها الى النائب العام ؛ فيحيلها هذا الى الجلاد • ويستغرق هذا كله ثلاثة أيام

وفى صباح اليوم الرابع ، يقول وكيل النائب العام لنفسه وهو يلبس ربطة عنقه : « ومع ذلك فيجب أن تنتهى هـــذه المسألة ! » • وعندئذ ، فان كان نائب كاتب المحكمـــة ليس مرتبطا بموعد للغداء مع بعض الاصدقاء يمنعه من ذلك ، فان الامر بالاعدام تحدد له دائما دقيقة للتنفيذ ، ثم يحرر ويبيض ويرسل الى الجهة المختصة .. فيسمع منذ فجر اليوم التالى صوت اقامة اخشاب المقصـــلة فى ساحة الاعدام ، ويصـــيح

المنادون العموميون عند تقاطع الشوارع وفى الأزقة فى صوت مرتفع مبحوح

كل ذلك يتم في ستة أسابيع . إن الفتاة الصغيرة كانت على حق ! ولكن ها هى ذى خمسة أسابيع على الاقل ، وربما ستة فلست أجرؤ على أن أعدها ، قد انقضت على فى هـــذا السجن ، سجن « بيستر » الحقير ، ويبدو لى أنه منذ ثلاثة أيام مضت كان اليوم يوم خميس

□

لقد فرغت الآن من كتابة وصيتى !

ولكن .. مافائدة ذلك ؟ لقد حكم على بدفع تعويض لن يكون كل ما أمتلكه كافيا لسداده . حقا ان المقصلة باهظة الثمن !

انني أترك ورائى أما ، وزوجة ، وطفلة !.. طفلة صغيرة فى الثالثة من عمرها حلوة وردية اللون ضعيفة البنيان ، عيناها واسعتان سوداوان وشعرها طويل كستنائى اللون ، وكانت سن ابنتى سنتين وشهرا واحدا عندما رأيتها لآخر مرة

وهكذا ، فسوف يكون هناك بعد موتى ثلاث نساء : واحدة منهن بغير ابن ، والثانية بغير زوج ، والثالثة بلا أب .. ثلاث يتيمات من أنواع مختلفة .. ثلاث أرامل باسم القانون !

انى أوافق على أن أعاقب عقابا عادلا ولكن .. هؤلاء البريئات ماذا جنـــين ؟ وما ذنبهن ؟ ان هذا لايهم ، فهم يلوثون شرف هؤلاء النسوة الثلاث ويدمرون حياتهن .. انها العدالة !

وليس ما في الامر أن أمى العجوز المسكين تقلقنى ، فسنها

أربع وستون سنة وسوف تموت من أثر الصدمة ، ولو أنهـا علمت من بعدى لبضعة أيام فيااليتها تجد فى مدفأتهـا لآخر لحظة بعض الرماد الدافىء ، فهى لن تشكو ولن تقول شيئا

وأمر زوجتى كذلك لا يبعث فى نفسى القلق ، فهى معتلة الصحة ضعيفة النفس ، وسوف تموت هى الاخرى .. الا اذا أصابها مس من الجنون . انهم يقولون ان الجنون يطيل العمر، ولكن عقلها لن يتألم عندئذ على الاقل ، ومن ثم فانها ستنام وتكون كأنها فى عداد الاموات

أما ابنتى وفلذة كبدى ، طفلتى وصغيرتى « مارى » المسكين التى تضحك وتلعب وتغنى فى هذه الساعة ولا تفكر فى شىء ، فانها هى التى تثير فى نفسى الالم !

يتبع

فى الزنزانة

هذه هى زنزانتى :

ان مساحتها ثمانى أقدام مربعة ، ولها أربعة جدران سميكة من الحجر ، ترتكز بزاوية قائمة على أرضـــية من البلاط تعلو بمقدار درجة واحدة على مستوى الدهليز الخارجى . وهناك على يمين الداخل ، عند الباب ، نوع من التجـــويف يقلد فى سخرية صوان ملابس النساء الذى يوجد عادة داخل الجدران . انهم يلقون فيه بحزمـــة من القش من المفروض أن يســـتريح السجين عليها وأن ينام وهو يرتدى سروالا من التيل ، وسترة من القماش الرخيص لا يتغيران صيفا أو شتاء

وفوق رأسى كسماء ، يرى المرء « قبوة » سوداء ـ هكـــذا يسمونها ـ تتدلى منها خيوط العنكبوت كأنها خرق بالية . وفيما عدا هذا ، فلا نوافذ هناك ، حتى ولا كوة صغيرة ، فلن تجد اللهم الا بابا عتيدا يطغى فيه الحديد على الخشب

كلا ، كلا .. اننى مخطىء ، ففى وسط هذا الباب الى أعلى ، هناك فتحة مساحتها تسع بوصات مربعة ، تتخللها طولا وعرضا شبكة من حديد على شكل صليب ، يستطيع السجان أن يغلقها أثناء الليل

وفى خارج الزنزانة ، دهليز طويل نسبيا يضاء ويغير هواؤه عن طريق نوافذ عالية ضيقة فىأعلى الجدار ، ومقسمالى اقسام بفواصل مبنية ، ويتصل بعضها ببعض بسلسلة من الابواب المتينة غير المرتفعة • ويستعمل كل قســـم من أقســـام هذا الدهليز ، على نحو ما ، كمدخل لزنزانة شبيهة بزنزانتى ، وفى هذه الزنزانات يضعون المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة الذين يحكم عليهم مدير السجن بعقـــوبات تأديبيـــة • أما الزنزانات الثلاث الاولى فمخصصة للمحـــكوم عليهم بالاعدام لانها قريبـــة من مركز المراقبـــة ، ومن ثم فهى أكثر ملاءمة للسجان

هذه الزنزانات هى كل ما تبقى من قصر « بيستر » القديم كما بناه فى القرن الخامس عشر الكاردينال « وينشستر » وهو نفس الكاردينال الذى قضى باحراق « جان دارك » •• اننى سمعت هذا من فضوليين كانوا قد حضروا منذ آيام ليرونى فى زنزانتى ، وكانوا ينظرون الى من بعيد كما ينظر الناس الى الوحوش الضارية فى حدائق الحيوان . وقد حصل السجان يومئذ على خمسة فرنكات

لقد نسيت أن أقول ان هناك جنديا مكلفا بالحراسة على باب زنزانتى ليلا ونهارا ، وان عينى لا تستطيعان أن ترتفعـــا الى الفتحة المربعة بباب الزنزانة دون أن تلتقيا بعينيه المفتوحتين الشاخصتين الى على الدوام

وفيما عدا هذا ،فهم يفترضون أنالهواء وضوء النهار ينفذان

الى هذا الصندوق المصنوع من الحجر

وبما أن ضوء النهار لم يظهر بعد ، فماذا أفعل بالليل ؟

لقد خطرت ببالى فكرة ، فنهضت واقفا وأدنيت مصباحى من الجدران الاربعة ، فوجدتها مغطاة بالكتابة والرسوم والاشكال الغريبة ، وبأسماء يختلط بعضها ببعض ويمحو بعضها بعضا • ويبدو أن كل محكوم عليه قد أراد أن يترك وراءه أثرا ، هنا على الاقل • انها كتابات بالقلم ، وبالطباشير، وبالفحم ، وبها حروف سوداء وبيضاء ورمادية اللون محفورة فى الاغلب حفرا عميقا فى الحجر • ورأيت هنا وهناك أحرفا بدأت معالمها تنطمس ، ويبدو أنها قد كتبت بالدم

ولو أن نفسى كانت أكثر حرية مما هى فيه لاهتممت حقا بأمر هذا الكتاب الغريب المسطر أمام عينى صفحة صفحة على كل حجر من أحجار هذه الزنزانة ، ولكنت جعلت من هذه الشرائح من الافكار المبعثرة على الاحجار كتابا كاملا أعيد تأليفه ، وأن أجد مرة ثانية كل رجل وراء كل اسم ، وأن أعيد المعنى والحياة الى هذه الكلمات المحفورة المحطمة ، الى هذه العبارات المبعثرة المفككة ، الى هذه الالفاظ المبتورة التى بدت لى كأجساد بلا رءوس كالاشخاص الذين كتبوها

ورأيت عند مستوى ارتفاع فراشى المصنوع من القش قلبين ملتهبين يخترقهما سهم ومكتوب فوقهما : « الحب مدى الحياة !» يا للمسكين ! ماتت أمانيه فى ريعان الشباب !

والى جوار هذا قبعة مثلثة الزوايا ، من تحتها وجه

مرسوم بطريقة رديئة ومعه هذه الكلمات : « يحيا الامبراطور .. « عام ١٨٢٤ »

ورأيت قلوبا أخرى ملتهبة ومعها هذه العبارة الخاصة بحياة السجون : « انني أحب وأعبد « ماتيو دنفان ـ جاك »

وعلى الجدار المقابل لسريري ، وقعت عيناى على هذا الاسم: « بابا فوآن » ،وكان حرف الباءالاول كبيرا ومزركشا بنقوش عربية ومرسوما بعناية ، ومن تحت هذا مقاطع من أغنية بذيئة . ثم على « قبعة الحرية » المحفورة فى الحجر بشكل عميق بعض الشيء ، وقد كتب من فوقها هذا الكلام : « الى الجمهورية ـ بوريس » .. أنه كان أحد ضباط الصف الاربعة بمدينة « لاروشيل » ! ياله من شـــاب مسكين ! ويا لكآبة ضروراتهم السياسية المزعومة ! فبسبب فكرة أو حلم أو مجرد خيال ، نرى هذه الحقيقة البشعة : المقصلة ! ..وأنا الذى كنت أشكو .. أنا التعس الذى ارتـكبت جريمة بمعني الكلمـة وأرقت الدماء !

انني لن أذهب فى بحثى الى أبعد من هذا ،فقد رأيت من فورى صورة رهيبة مروعة مرسومة باللون الأبيض فى ركن الجدار : انها صورة هذه المقصلة التى ربما كانت تقام لى فى هذه اللحظة ! وكاد المصباح يسقط من يدى !

▱

· واندفعت عائدا لأجلس على القش ورأسى بين ركبتى ، ثم انقشع فزعى الصبيانى وأخـذتنى من جديد الرغبـــة فى

الاستطلاع ، ومتابعة قراءة ماهو مكتوب على جـدر الزنزانة

انتزعت من جانب اسم « بابافوان » نسيج عنكبوت ضخم مثقلا تماما بالغبار ، ومعلقا فى زاوية الجـدار ، فرأيت تحته أربعة اسماء أو خمسة من الممكن أن تقرأ بسهولة من بين اسماء اخرى لم يبق منهـــا سوى بقع على الجدار . أما الاسماء الواضحة فهى : « دوتان » عام ١٨١٥ ـ « بولان » عام ١٨١٨ ـ « جان مارتان » ١٨٢١ ـ « كاستانج » عام ١٨٢٣

وما كدت اقرأ هذه الأسماء حتى انتابتنى ذكريات مظلمة : أما « فدوتان » هو الذى قطع أخاه اربا اربا ، وذهب ليلا الى باريس ليلقى برأسه فى نافورة وبجذعه فى المجارى ! و « بولان » هو الذى قتل زوجته ، و « جان مارتان » هو الذى أطلق رصاص مسدسه على والده الشيخ وهو يفتح نافذة . أما « كاستانج » فهو ذلك الطبيب الذى قضى على صديقه وهو يعالجه فى مرضه الاخير ، الذى كان الطبيب نفسه سببا فيه ، وذلك بأن كان يعطيه السم على أنه دواء . والى جانب هؤلاء « بابافوان » المجنون الرهيب الذى كان يقتل الاطفال بطعنة من سكين فى الراس ! !

قلت فى نفسى : هاهم أولاء من اقاموا من قبلى ضيوفا ن هذه الزنزانة ! وأحسست برجفة من الحمى تسرى فى كليتى ! هنا ، على نفس هذه « البلاطة » التى أجلس عليها . جالت فى أذهان رجال الجريمة والدم هؤلاء ، أفكارهم الاخيرة .. لقد دارت خطواتهم الاخيرة حول هذا الجدار ، وفى هذا المربع

الضيق ، كخطوات حيوان كاسر • لقد تتابع بعضهم فى اثر بعض على فترات متقاربة فى هذه الزنزانة حتى ليبدو لى أنها لم تخل أبدا من النزلاء ! لقد تركوا هذا المكان دافئا .. تركوه لى أنا ، وسوف أذهب بدورى لألحق بهم فى مقبرة « كلامار » حيث ينمو العشب بغزارة ايما غزارة !

لست أتنبأ بالغيب ، ولا أعتقد فى الخرافات ؛ ومن المحتمل أن هذه الأفكار كانت تثير فى نفسى مزيدا من الحمى ، ولكن بدا لى فجأة وانا أحلم على هذه الصـــورة ، ان تلك الاسماء المشئومة كانت مكتوبة بالنار على الجدار الاسود ، ودوى فى اذنى رنين قوى أخذ يزداد عنفا وسرعة ، وامتلأت عيناى بوهج احمر ! ثم بدا لى أن الزنزانة كانت مملوءة بالرجال ، برجال اشكالهم غريبة ، كانوا يحملون رءوسهم بأيديهم اليسرى وهم يمسكون بها من الفم ، لانها كانت رءوسا لا شعر فيها •• وكانوا جميعا يلوحون الى بقبضات أيديهم مهددين ماعدا قاتل أبيه !

وأطبقت عينى وقد تملكنى الهلع ، فرأيت عندئذ كل شىء فى وضوح أكثر ، وسواء أكان ما رأيته حلما أم رؤيا أم حقيقة ، فقد كنت خليقا بأن أجن .. لولا انى أحسست بشعور مفاجىء أيقظنى من هذا الكابوس فى الوقت المناسب ، وكدت أقع على ظهــرى عنــدما شعرت ببطن بارد ، وبأرجل صغيرة مكسوة بالزغب تزحف فوق قدمى العارتين . كان هذا هو العنكبوت الذى كان فى طريقه الى الهرب بعد أن أزعجته

ولقد ازال هذا العنكبوت الرؤيا من أمام ناظرى . ويا لها من أشباح مرعبة ! كلا ، انهـا كانت دخانا ينبعث من مخى الخاوى المحموم ! كانت كابوسا على طريقة « ماكبث ! » فالموتى ميتون ، وخاصة هؤلاء . لقد أغلقت عليهم القبور جيـدا بالاقفال ، وليس القبر سجنا يهرب منه الانسان . فكيف حدث اذن انى خفت على هذا النحو ؟

ان باب القبر لا يفتح من الداخل قط

مشهد رهيب

رأيت فى هذه الأيام الماضية شيئا بشعا !

كنا فى مطالع الفجر ، وكان السجن يضج بالاصوات، وكان يسمع صوت اغلاق الابواب الثقيلة وفتحها، وصرير المزاليج والاقفال الحديدية ، وصليل رزم المفاتيح التى يحتك بعضها ببعض فى أحزمة السجانين ، واهتزاز درجات السلم من أعلى الى أسفل تحت وقع خطوات مندفعة ، وأصوات ينادى بعضها بعضا ، ويرد بعضها على بعض من طرفى الدهاليز الطويلة ! وكان جيرانى فى الزنزانة ، وهم المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، أكثر مرحا من المألوف . وكان يبدو على سجن « بيستر » بأسره أنه يضحك ويغنى ، وأنه يلهو ويرقص

وبقيت وحدى صامتا وسط كل هذه الضوضاء ، ساكنا لا أبدي حراكا وسط هـذه الحركة الدائبة . كنت اصغى فحسب ، أصغى فى يقظة وانتباه وقد تملكتنى الدهشة

ومر أحد السجانين فخاطرت بندائه ، وسألته عما اذا كان هناك عيد فى السجن ، فأجابنى الرجل قائلا : « انه عيد اذا شئت ! فاليوم موعد تقييد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة بالحديد ، أولئك الذين يجب أن يرحلو غدا الى سجن «طولون» أتريد أن تشاهد ذلك ؟ إنه سوف يسليك »

وكان هذا المنظر فى الواقع ـ مهما بلغ من بشاعته ـ فرصة طيبة لانسان سجين بمفرده فى زنزانة ، فقبلت هذه التسلية

واتخذ السجان الاحتياطات المعتادة كى يطمئن من ناحيتى ، ثم اصطحبنى الى زنزانة صغيرة خالية ليس بها أثاث على الاطلاق ، ولها نافذة مسورة بقضبان من حديد ، ولكنها نافذة بمعنى الكلمة ، على قدر من الارتفاع يسمح للمرء بأن يتكىء على حافتها ، وان يرى السماء من خلالها بالفعل

وقال لى السجان : « حسنا .. من هنا سوف ترى وتسمع ، وسوف تكون وحدك فى مقصورتك هذه وكأنك ملك ! »

ثم خرج الرجل بعد أن أغلق على باب الزنزانة بالمفاتيح والأقفال والمزاليج

وكانت تلك النافذة تطل على فناء مربع الشكل ، فسيح الى حد معقول ، يحيط به من الجهات الاربع بناء كبير من الحجر مؤلف من ستة طوابق كأنه جدار ضخم . وليس ثمة ما هو أكثر زراية وعريا وأشد ايذاء للعين من هذه الواجهة الرباعية ذات النوافذ العديدة المسورة بالحديد ، التى التصقت بها ـ من أسفل البناء الى أعلاه ـ مجموعة كبيرة من الوجوه الشاحبة الضامرة ، قد تكدس بعضها فوق بعض كأنها أحجار فى جدار ، يحيط بها جميعا ـ ان صح هذا التعبير ـ اطار من قضبان النوافذ الحديدية . كان هؤلاء هم السجناء ، قد أخذوا يشاهدون هذا الحفل ، فى انتظار أدوارهم حين تحين

ليصبحوا هم الممثلين . ان المرء ليخيل اليه انهم أرواح معذبة من وراء نوافذ من حديد تطل على جهنم

كانوا ينظرون جميعا فى صمت الى الفناء الذى كان لا يزال خاليا الى تلك اللحظة . انهم كانوا ينتظرون . وهنا وهناك ، كانت بعض الأعين الحية الثاقبة تلمع كأنها نقط من النار بين تلك الوجوه الحزينة المنطفئة

ان « مربع السجون » الذى يحيط بذلك الفناء ليس مقفلا من جميع نواحيه ، فأحد اضلاعه الأربعة (الضلع الذى يطل على جهة الشرق) مقطوع عند وسطه تقريبا ولا يتصل بالضلع الذى يجاوره الا بسور من حديد ، يطل على فناء ثان أصغر مساحة من الفناء الاول ، ومحاط مثله بالجدران والابراج الصغيرة السوداء

ومن حول الفناء الرئيسى ، توجد مقاعد من الحجر ظهورها الى الجدار الضخم ، ويقوم فى وسطه عامود من الحديد مثنى من أعلى ليعلق به المصباح

وما كادت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة ظهرا ، حتى فتح على حين فجأة باب كبير مرتفع يكمن وراء تجويف فى البناء ، وظهرت عربة « كارو » يحرسها نفر من الجنود بدت عليهم القذارة والوجل ، يرتدون زيا أزرق ، وعلى أكتافهم شارات حمراء ، وسيور صفراء ، من التى تعلق فيها البنادق . ودخلت هذه العربة الفناء فى تثاقل محدثة صوتا حديديا . كانت تلك هى عربة السجانين قد جاءوا ومعهم

وفى تلك اللحظة عينها ، وكما لو كان الصوت الصادر من انعربة قد أيقظ كل أصوات السجن ، ضج المتفرجون من النوافذ بصيحات المرح والأغانى ، وبالتهديد والسب والشتائم المختلطة بقهقهة عالية ، وضحكات سماعها يؤلم الآذان ، وهم الذين كانوا الى تلك اللحظة صامتين لا يتحركون ، كانت وجوههم تبدو كأنها وجوه الشياطين ، وقد بدت مكفهرة مكشرة عن أنيابها ، وبرزت قبضات أيديهم من خلال قضبان النوافذ ، وارتفعت كل الاصوات ، ولمعت كل الأعين ، فروعتنى رؤية كل ذلك الشرر وهو يتطاير من خلال هذا الرماد

ومع ذلك ، فقد شرع عمال السجن ، الذين كنت أميز من بينهم عددا من الفضوليين ، كانوا قد قدموا من باريس ، نظرا لما كان باديا عليهم من الرعب ونظافة الهندام ، وشرع عمال السجن هؤلاء فى تأدية عملهم فى هدوء ، فصعد أحدهم فوق العربة وألقى الى رفاقه بالأغلال الحديدية ، وأطواق السفر ، ورزم السراويل المصنوعة من التيـــل الرخيص . ثم قسم العمال العمل فيما بينهم ، فذهب فريق منهم الى ركن من أركان الفناء ليبسطوا فيه السلاسل الطويلة التى كانوا يسمونها فى لغتهم « الدوبارة » ، أما الآخرون فقد بسطوا الاقمشة والقمصان والسراويل على « البلاط » ، بينما كان أكثرهم فراسة يفحصون الأطواق الحديدية المخصصة لاقدام السجناء، تحت مراقبة قائدهم وهو شيخ بدين ، ثم يمتحنون صلابتها

بحكها فى البلاط حتى يتطاير منها الشرر

وكان هذا كله يجرى بينما كان السجناء يصفقون فى سخرية واستهزاء ، ولم يكن يطغى على أصواتهم الا ضحكات صاخبة صادرة من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، الذين كان ذلك بعد من أجلهم ، وهم يقفون على مرأى منا عند تقاطع السجن العتيق الذى يطل على الفناء الصغير

وما ان تمت هذه الاستعدادات حتى جاء رجل فى ثياب موشاة بالفضة كانوا يدعونه « السيد المفتش » ، واعطى أمرا الى مامور السجن . وما هى الا لحظة حتى لفظ بابان منخفضان و ثلاثة عددا ضخما من الرجال دفعة واحدة ، وامتلأ الفناء بكتل كالسحاب من السجناء البشعين المهلهلين وهم يصيحون ويزأرون . كان هؤلاء هم المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة !

وتضاعف الفرح فى النوافذ لدى دخول هؤلاء ، وحيا السجناء بعضهم ــ وهم الاسماء الكبيرة فى الليمان ــ بالتصفيق والتهليل ، فكان هؤلاء يتقبلون ذلك منهم فى نوع من التواضع الممزوج بالفخر ، وكان أكثرهم يلبسون فوق رءوسهم قبعات غريبة الشكل كانوا قد صنعوها بأيديهم من قش الزنزانة ، كى تلفت الانظار الى رءوسهم فى المدن التى سوف يمرون بها . وكان التصفيق لهؤلاء بالذات أكثر شدة وحماسا ، بل ان أحدهم بصفة خاصة ــ وهو شاب فى السابعة عشرة كان وجهه شبيها بوجه فتاة ــ قد أثار مظاهر الحماسة والانفعال وهو خارج من زنزانته حيث احتجز منذ ثمانية أيام ، وكان قد صنع بنفسه من قش زنزانته رداء كان

يغطيه من رأسه الى قدميه ، فدلف الى الفناء وهو يلف ويدور حول نفسه فى خفـة لا تحاكيهـا الا خفة ثعبان ، فثـارت بسببه عاصفة مجنونة من التصفيق ، ومن صيحات السرور . وكان المحكوم عليهم بالأشغال الشـاقة يردون على ذلك من ابراجهم ، فكان هذا التجاوب فى المشاعر وتبـادل المرح بين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الراحلين لتنفيذ العقوبة وبين زملائهم الذين ينتظرون دورهم شـيئا مرعبا حقا . ومهمـا كان المجتمع هنا يمثله السجانون والفضوليون الذين استولى عليهم الذعر ، فان الجريمة كانت تتحداه فى تلك اللحظةوجها لوجه ، وكانت تجعل من هذه العقوبة المفزعة عيدا عائليا

وكلما وصل سجناء آخرون، كانوا يدفعونهم بين صفين كثيفين من الحراس الى الفناء الصغير المحوط بالاسوار الحديدية حيث كان ينتظرهم الاطباء . وهناك ، بذل كل واحد منهم جهـدا أخيرا ليتجنب السفر متعللا بعذر من الأعذار الصحية : فهو اما مريض بعينيه ، واما مقطوع اليد ، واما أنه يعرج بساقه ، لكن الاطباء كانوا يجدونهم فى الأغلب الاعم صالحين لليمان ، فكان كل منهم يرضخ عندئذ فى غير مبالاة ، متناسـيا فى دقائق قليلة عجزه المزعوم الذى كان مصابا به طول حياته

ثم فتح باب الفناء الصغير مرة أخرى وأخذ أحد الحراس ينادى بأسماء السجناء مرتبة حسب الحروف الأبجـدية ، فخرج المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة عندئذ واحدا واحدا ، وذهب كل منهم لينتظم واقفا فى الصف فى ركن الفناء الكبير

الى جوار زميل له ،جمعته به صدفة الحرف الذى يبدأ اسمه به.
وهكذا كان كل واحد منهم يرى نفسه أمام نفسه ، وكان كل واحد منهم يحمل قيده بنفسه جنبا الى جنب مع شخص مجهول ، واذا شاءت المصادفة أن يجد أحدهم صديقا له فيهم ، فان القيد الحديدى كان يحول بينهما ويفصله عنه فصلا لاسبيل الى الفكاك منه ، فكان ذلك أبلغ الشقاء وأمره !

وبعد أن خرج نحو ثلاثين سجينا أقفل الباب كما كان ، ثم صفهم أحد الجنود صفا بعصا فى يده ، وألقى أمام كل واحد منهم بقميص وسترة وسروال من قماش رخيص ، ثم أشار بيده اشارة خاصة فشرعوا جميعا فى خلع ملابسهم ، غير أن حادثا غير منتظر وقع عندئذ ، وكأنه كان قد تعمد اختيار تلك اللحظة بالذات ليحيل هذا الاذلال الى عذاب

كان الطقس الى تلك اللحظة جميلا نوعا ما ، ولئن كان نسيم شهر أكتوبر يشيع البرودة فى الجو ، فانه كان يشق من آن لآخر فى غيوم السماء الرمادية اللون ثغرة كان يسقط منها شعاع من الشمس . ولكن ما كاد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ينزعون من على أجسادهم أسمال السجن البالية ويتقدمون عراة ليفحصهم الحراس المتشككون على مرأى من أعين الفضوليين الغرباء الذين كانوا يدورون من حولهم ليفحصوا أكتافهم ، حتى أظلمت السماء فجأة وهطل وابل من أمطار الخريف التى تشبه السيل ، فغمر الفناء المربع بالماء البارد وأغرق رءوس السجناء الحاسرة وأوصالهم العارية وملابسهم

التعسة الملقاة على الأرض

وفى طرفة عين ، كان مدخل الفناء قد خلا تمـــاما من كل شخص لم يكن ســـجانا أو ســـجينا ، وهرع فضـــوليو باريس ليحتموا تحت مداخل الأبواب

ومع ذلك ، فقد استمر المطر ينهمر مدرارا ، ولم نكن نرى فى الفناء سوى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وقد وقفوا عراة يتصبب الماء من فوق جلودهم على أرض الفناء الغارقةفى الماء .. ان صمتا حزينا قد أعقب تحديهم الصـــاخب فوقفوا يرتجفون ، وأخذت أسنانهم تصطك وسيقانهم الناحلة وركباتهم ذات العقد ترتعد فتصطدم الواحدة بالأخرى . وكان منظرهم يستوجب الشفقة حقا ، وهم يسترون أجزاء أجسادهم العارية الزرقاء بهذه القمصان المبتلة وتلك الستر والسراويل التى يقطر منها الماء . لقد كان العرى خيرا لهم !

ان واحدا منهم ، واحدا فقط ، وهو شيخ مسن ، كان قد احتفظ بشيء من المرح ، فصيـــاح قائلا وهو يجفف جســـمه بقميصه المبتل : « ان هذا لم يكن ضمن البرنامج ! » ثم أغرق فى الضحك ، وهو يلوح بقبضة يده نحو السماء

وبعد أن لبس السجناء ثياب السفر ، اقتادهم حراسهم فى مجموعات تضم عشرين أو ثلاثين شخصا الى ركن مظلل من الفناء حيث كانت القيود الممدودة على الارض فى انتظارهم . وكانت تلك القيود عبارة عن سلاسل طويلة غليظة تقطعهـا أفقيا وعلى بعد قدمين بانتظام سلاسل أخرى قصيرة قد ربط فى

طرفيه[1] طوق من حديد مربع الشكل يفتح عن طريق « مفصلة» فيأحدجوانبه ، ويقفل من الجانب المقابل « ببرشمته »بالحديد ويظل هذا الطوق الحديدى حول رقبة السجين طول مدةالرحلة وعندما نشرت كل هذه السلاسل على الارض بدت لى كأنهـا هيكل عظمى لسمكة ضخمة

وأجلس السجناء فى الوحل على الارض الغارقة فى المـاء وبعد أن قيست الاطواق على أعناقهم ، جاء حـــــدادان من السجانين مزودان بسندانين متنقلين فبرشموا لهم تلكالاطواق « على البارد » بطرقها طرقا شديداً بمطرقة من حديد . فكانت هذه لحظةرهيبةاصفر لها وجه أكثر السجناءشجاعة ! لقدكانت كل ضربة من المطرقة على السندان المسنود إلى كتف السجين من ناحية ظهره تجعل ذقن المسكين تقفز الى الامام ، وكانت أدنى حركة يمكن أن يأتى بها السجين من الامام إلى الخلف كفيلة بأن تطيح بجمجمته كأنها قشرة « عين جمل ! »

وما أن تمت هذه العملية حتى وجم الســـجناء وأظلمت وجوههم ، ولم يعد يســـمع الا صـــليل السلاسل وصوت مكتوم كان يتردد بين حين وآخر ، صوت عصى السجانين على أجسام من يبدون تمنعا أو مقاومة .. لقد كان بعض هـؤلاء السجناء يبكون ، وكان الشيوخ منهم يرتعدون وهم يعضون على نواجذهم ، ووقفت أنا فى نافذة الزنزانة أطل على الفناء وأنظر فى رعب الى كل تلك الصور المحـزنة فى اطارهـــا الحـــديدى

وهكذا ، فان زيارة السجانين تلت زيارة الطبيب ، وأعقب زيارة السجانين تركيب الاطواق الحديدية حول رقاب السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ٠٠ لقد كان مشهدا مؤلفا من ثلاثة فصول !

وظهر شعاع الشمس من جديد فبدا كأنه قد أشعل كل هذه العقول ، اذ نهض السجناء معا دفعة واحدة ، كما لو كانوا قد تحركوا بفعل الحمى ، وتشابكت أيدى سجناء السلاسل الخمس الطويلة وانتظموا فجأة فى حلقة ضخمة حول عامود المصباح الذى يتوسط الفناء ، واخذوا يدورون من حوله على نحو يتعب البصر وهم ينشدون احدى أغانى الليمان فى لغة عامية دارجة ، وفى نغمة تارة شاكية باكية ، وأخرى صاخبة مرحة • وكنت أسمع بين حين وآخر صيحات جافة وضحكات ممزقة لاهثة تمتزج بكلمات هذه الاغنية الغريبة ، ثم تلا ذلك تصفيق حاد مجنون ، بينما كانت القيود الحديدية تصلصل ويصطك بعضها ببعض فتحدث نغما كان بمثابة الموسيقى لتلك الاغنية ، وهى موسيقى كانت أشد خشونة من ضوضائهم ! ولو بحث فى مخيلتى عن صورة للعفاريت فان أستطيع أن أتخيلها أحسن ولا أسوأ من هذه الصورة !

ثم أحضر الى الفناء طست كبير ، وقطع السجانون على السجناء رقصهم بضربات من عصيهم ، ثم ساقوهم الى هذا الطست حيث كان المرء يرى شيئا طافيا كالعشب ـ لست

أدرى ما هو – فى سائل ساخن كان يتصاعد منه البخار لست أدرى ما هو كذلك ، فأخذوا يأكلون

وبعد أن فرغ السجناء من أكلهم ألقوا بما تبقى من طعامهم هذا ومن خبزهم الاسود على بلاط الفناء ثم عادوا الى الرقص والغناء من جديد ، ويبدو انهم يتركون لهم شيئا من هذه الحرية يوم يكبلون فى الاصفاد وكذلك فى الليلة التى تليها

ومكثت أرقب هذا المشهد الغريب فى يقظة كبيرة ، واستطلاع منهوم ، وانفعال عميق ، حتى أنى نسيت نفسى تماما ! ان شعورا جارفا من الشفقة كان يجتاحنى فيمزق أحشائى ، وكانت ضحكاتهم تملأ عينى بالدموع

وفجأة ، وخلال هذا الحلم العميق الذى كنت مستغرقا فيه رأيت الحلقة الضخمة تكف عن الصياح والدوران ، وساد صمت عميق ثم فجأة اتجهت أنظارهم الى النافذة التى كنت أشغلها ، وصاحوا جميعا ، وهم يشيرون الى بأصابعهم قائلين : « المحكوم عليه بالاعدام ! .. المحكوم عليه بالاعدام ! » .. وقد غمرهم فى تلك اللحظة مرح مضاعف ..

وتصلبت فى مكانى متحجرا ! فقد كنت أجهل من أين عرفونى وكيف تعرفوا على !

وصاحوا بى قائلين ، وهم يطلقون ضحكات ساخرة بشعة: « عمت صباحا ! .. طاب مساؤك ! » .. ونظر الى واحد من بينهم ، وهو شاب يافع كان أصغر المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة سنا ، وكان وجهه خشنا لامعا جامد الملامح ، نظر الى

نظرة تفيض بالحسد ، وهو يقول : « انه لسعيد الحـــظ ! فسوف يمحى من العالم ! وداعا أيها الزميل ! »

لست بمستطيع أن أعبر عما كان يدور فى نفسى .. اننى كنت فى الواقع زميلا لهم ، فساحة الاعدام هى شقيقة لليمان « طولون » ، بل انى كنت فى درك أســـفل منهم ! .. انهم كانوا يشرفوننى ..

واجتاحتنى رجفة عاتية .. نعم ، انى زميل لهم ومن الممكن ان أصير ـ أنا نفسى ـ بعد أيام مشهدا يملأ عليهم أبصارهم !

وكنت قد بقيت فى النافذة بلا حراك وقد شلت أوصالى وتملكنى الذهول . ولكننى حينما رأيت ســجناء السلاسل الخمس الكبرى يتقدمون الى الامام ثم يندفعون نحوى وهـم يوجهون الى كلمات ودية جهنمية ، وحينما سمعت ضــجيج قيودهم الفظيع يختلط بصيحاتهم المجلجلة ، وبوقع خطواتهم تحت نافذتى عند أسفل الجدار ، خيل الى أن هذه الشرذمة من الشــياطين كانت تتسلق البنــاء الى زنزانتى التعسة ، واطلقت صيحة مروعة ثم اندفعت نحو الباب وألقيت نفسى عليه بكل قواى كى أحطمه ، لكننى لم أجد سبيلا الى الفرار ، فقد كان الباب مقفلا من الخارج بالمزلاج .. وعدت أحـــاول اقتحام الباب ، وأنا أنادى وأصرخ فى جنون ، فبدا لى وقتئذ أنى كنت أسمع أصوات السجناء المخيفــة تقترب منى أكثر فأكثر ، وظننت أنى أرى رءوسهم المنكرة تبدو بسرعة على حافة نافذتى ، فصحت صيحة فزع أخرى مدوية ثم سقطت مغشيا على .

اللحن الحزين

وعندما أفقت من غشيتى كان الليل قد أقبل ، ووجدت نفسى راقدا فوق « برش » ، وكان هناك مصباح ترتجف ذبالته قرب السقف مكننى من أن ارى « أبراشا » أخرى مرصوصة الى جوار « برشى » عن يمين ، وعن شمال ، فأدركت أنهم نقلونى الى مستشفى السجن

وظللت مستيقظا لحظات ، ولكن بلا تفكير وبلا ذاكرة وقد احسست بسعادة غامرة لانى نائم على سرير . وليس ثمة شك فى أن سرير المستشفى هذا كان خليقا فى اى ظرف آخر بأن يجعلنى أفر منه شفقة واشمئزازا ، غير أنى كنت قد أصبحت شخصا آخر .. كانت ملاءة هذا السرير رمادية اللون خشنة الملمس ، وكان الغطاء ممزقا ، وكنت أشعر بقش الزنزانة من خلال تلك « المرتبة » .. ولكن هذا لم يكن يهم ! .. فقد كان فى وسعى أن أبسط أطرافى كما يروق لى فوق هذه الملاءة الرخيصة وتحت هذا الغطاء مهما بلغ من الرقة ، وكنت أحس رويدا رويدا بزوال هذا البرد المروع الذى كان ينفذ حتى نخاع العظام ، والذى كنت قد ألفته فى الزنزانة ، فاستسلمت مرة اخرى للنوم

واستيقظت من نومى على صوت جلبة كبيرة ، وكان الوقت فجرا . كان الصوت يأتينى من الخارج ، وكان سريرى

بجوار النافذة ، فنهضت وجاست فى الفراش لاستجلى مصدر هذا الصوت ..

كانت النافذة تطل على الفناء الكبير فى سجن « بيستر » ، وكان هذا الفناء يعج بالناس حيث كان صفان من جنود السجن القدامى الاشداء يجدان مشقة كبيرة فى الاحتفاظ بممر مفتوح عبر الفناء بين هذه الكتل من الجماهير ، وبين هذين الصفين من الجنود كانت خمس عربات « كارو » محملة بالرجال تتقدم فى بطء وهى تتعثر عند كل « بلاطة » .. كان هؤلاء الرجال هم السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الذين تقرر رحيلهم

كانت هذه العربات مكشوفة ، وكانت كل واحدة منها محملة بمجموعة من السجناء تربطهم احدى السلاسل الطويلة الخمس ، وقد جلسوا على جانبيها واتكأ بعضهم على بعض ، تفصل بينهم السلسلة المشتركة التى كانت تمتد بطول العربة ، والتى كان يقف عند آخرها على قيد خطوة من سلمها جندى يشهر بندقية معدة للاطلاق . وكانت صلصلة الاصفاد الحديدية تسمع عند كل هزة من هزات العربة ، كما كانت رءوس السجناء ترى وهى تقفز ، وسيقانهم المعلقة تتأرجح هنا وهناك

وكان ثمة رذاذ نافذ يثلج الهواء ويجعل سراويل السجناء الرمادية المصنوعة من التيل والتى كانت قد اسودت ، يجعلها تلتصق بركباتهم ، وكان ماء المطر يتصبب من لحاهم الطويلة ومن شعرهم القصير ويغمر وجوههم التى صارت بنفسجية اللون

وكنت أراهم وهم يرتجفون وقد أخذت أسنانهم تصطك من البرد والغضب

وكان هؤلاء السجناء من جهة اخرى عاجزين عن الحركة ، اذ أن المرء عندما يربط بسلسلة كهذه فانه لايصبح الا جزءا من تلك الكتلة القبيحة التى يسمونها « الكردون » والتى تتحرك كأنها رجل واحد .. ان الذكاء لابد عندئذ أن ينمحى ، فطوق اليمان الملفوف حول العنق يخنق العقل ويحكم عليه بالموت ، اما الحيوان نفسه (١) فيجب ألا تكون له حاجات أو شهية للطعام الا فى ساعات محددة

وهكذا ، فان السجناء كانوا لايستطيعون حركة وقد أصبحوا شبه عراة ، ورءوسهم حاسرة وأرجلهم معلقة فى الهواء . كانوا يبدءون ، على هذا النحو ، سفرهم الذى يستغرق خمسة وعشرين يوما ، وهم محمولون على نفس العربات ويرتدون نفس الثياب ، تحت وهج الشمس المحرقة وتحت أمطار نوفمبر الباردة ، حتى ليبدو أن الناس كانوا يريدون أن تشاركهم السماء مناصفة القيام بعملهم كجلادين !

وكان قد نشب بين هذا الجمهور وبين العربات حوار رهيب : سب من ناحية ، وتحد من الناحية الاخرى ، وشكاوى وشتائم من الجانبين .. ولكن ماهى الا اشارة صدرت من القائد (٢) حتى

---

(١) يعنى الناحية الحيوانية فى السجين أى البدن ومطالبه

(٢) الكابتن قائد حرس السجن

رأيت وابلا من ضربات العصى التى كان يحملها الجنود ينهال على العربات الخمس فيغرق أكتاف السجناء أو رءوسهم بلا تمييز ، فعاد كل شيء الى الهدوء ، ولكنه كان ذلك الهدوء الظاهرى الذى يسمونه نظاما ، اذ كانت أعين هؤلاء التعساء تفيض بالانتقام ، وكانت أيديهم تتقلص على ركبهم فى عنف ظاهر

واختفت العربات « الكارو » الخمس ، التى كان يحرسها فرسان البوليس وجنود السجون المشاة ، واحدة بعد أخرى تحت ذلك الباب المرتفع ذى «القبوة » ، باب سجن « بيستر» وتبعتها عربة سادسة تكدست عليها المواقد والأوانى النحاسية والسلاسل الاحتياطية (١) .. وكان نفر من السجانين قد تأخروا قليلا فى المقصف (٢) فخرجوا مسرعين ليلحقوا بالعربات

ثم انفض الجمهور وتلاشى هذا المنظر كأنه رؤيا أو خيال عابر ، وأخذت الجلبة التى كانت تصدر عن تلك العربات الثقيلة تتضاءل شيئا فشيئا ويضعف معها وقع سنابك الخيل على طريق « فونتينبلو » المرصوف ، وقرقعة السياط ، وصليل السلاسل ، وصيحات الجماهير الذين كانوا يتمنون للسجناء فى سفرهم كل المصائب والنكبات

---

(١) سلاسل وأطواق حديدية اضافية وقطع غيار للطوارىء
(٢) « كانتين » السجن

ومع ذلك ، فقد كان هذا بالنسبة اليهم مجرد بدايةفحسب!

فماذا كان يقول لى المحامى اذن ؟ .. الأشغال الشـــاقة المؤبدة ! .. آه ! ان الموت خير عندى ألف مرة ! إنى أفضل المشنقة على الليمان ، والفناء على جهنم (١) ، وأوثر أن أسلم رقبتى لسكين الدكتور « جيوتان » على أن أســـلمها لطوق السجان !

آه ! الاشغال الشاقة المؤبدة ؟ ! .. رحماك أيتها السماء العادلة !

□

لم أكن مريضا لسوء الحظ ، واضطررت فى اليوم التالى الى الخروج من مستشفى السجن لتتلقفنى الزنزانة مرة ثانية

اننى لست مريضا ! هذا حق ، فأنا شاب قوى ، أستمتع بصحة جيدة ويجرى الدم فى عروقى فى حرية ، وكل أعضاء جسمى تطيع سائر نزواتى .. أنا قوى الجســـم والروح ، وتكوينى يمكننى من أن أعيش طويلا .. نعم ، ان هذا كله صحيح .. ومع ذلك ، فانى مصـــاب بمرض آخر ، بمرض مميت من صنع يد الانسان

فمنذ أن خرجت من مستشفى السجن تملكتنى فكرة مؤلمة، فكرة سوف تورثنى الجنون ! فقد خطر ببالى أنى ربما استطعت الهرب لو أنهم تركونى فى هذا المستشفى ، فهؤلاء الأطبـــاء

---

(١) يعنى المؤلف عذاب الليمان والاشغال الشاقة المؤبدة

والراهبات كان يبدو أنهم يعنون بأمرى ·· اننى سوف أموت هكذا وأنا بعد شاب صغير السن ·· سوف أموت مثل هـذه الميتة الشنعاء !

لقد بدا لى أنهم كانوا يرثون لحالى لكثرة ما كانوا يحومون حولى ويتزاحمون الى جوار سريرى ·· آه ! صمتا أيها التعس! ·· فهو مجرد حب استطلاع فحسب ·· وفوق هذا ، فهؤلاء الاشخاص وان حاولوا انقاذى حقـا من الحمى ، فليس فى استطاعتهم أن ينقـذونى من حـكم الاعـدام ! ·· ومع ذلك ، أفليس الأمر يسيرا عليهم للغاية ؟ مجرد باب يترك مفتوحا ! ماذا يضيرهم لو أنهم فعلوا ذلك ؟

ولكن واحسرتاه ! لم تعد أمامى فرصة الآن ·· إن طلب الاستئناف الذى تقدمت به سوف يرفض لأن كل شىء قد سار طبقا لنص القانون ، فقد شهد الشهود شهادة كاملة ،وترافع المترافعون مرافعة جيدة ، وحكم القضاة حكما صحيحا ! اننى لا أعول على الاستئناف ، اللهم الا ·· كلا ، كلا ·· ان هـذا ضرب من الجنون ! ولم يعد ثمة أمل ! فطلب استئناف الحكم ليس الا حبلا يمسك بتلابيبك وأنت معلق فوق الهوة فتسمعه وهو يتآكل قليلا قليلا مع كل لحظة حتى ينقطع تماما ·· انه كسكين المقصلة عندما تهوى على عنق المرء فى ستة أسابيع !

آه لو صدر عفو عنى ! ·· عفو ؟ ! ·· من ذا الذى سوف يصدره ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ ·· من المحال أن يصدر العفو عنى، كل ذلك عبرة للناس ، وضرب مثل .. كما يقولون

لم تعد هناك أمامى ســـوى ثلاث خطوات أخطوها ، ثلاث فحسب : سجن « بيستر » .. ثم سجن « الكونسيير جورى » .. وأخيرا ، ساحة الاعدام !

□

وكنت قد جلست فى الشمس بجوار النـــافذة خـــلال الساعات القليلة التى قضيتها فى المستشفى .. ان الشمس قد عادت الى الظهور ، أو على الأقل ، كنت أتلقى من أشعتها كل ما كانت تسمح لى به منها قضبان النافذة الحديدية

جلست هناك وقد وضعت رأسى الثقيل المحموم بين يدى اللتين كانتا لاتقويان على حمله ، واسندت مرفقى الى ركبتى وقدمى الى قضبان مقعدى ، لأن الانهاك كان قد بلغ منى مبلغا جعلنى انحنى وأنثنى على نفسى كما لو كنت جسما لم تعد فى أوصاله عظام ولا فى لحمه عضلات

وكانت رائحة السجن التى تزكم الانوف تخنقنى أكثر من أى وقت مضى ، وكانت أصوات كل هؤلاء السجناء المختلطة بصليل ســلاسلهم لاتزال تطن فى أذنى ، وكنت أقاسي كللا كبيرا فى سجن « بيستر » ، حتى أنه كان يبدو لى أن الله فى عدله ورحمته سوف تأخذه الشـــفقة بى فيرســـل الى طائرا صغيرا على الاقل ليغرد هنا أمامى على حافة هـــذا السقف الاردوازى المنحدر

ولست أدرى أن كان الله الرحيم هو الذى استجاب عندئذ لدعائى أو أنه الشيطان الرجيم ، فقد سمعت فى نفس اللحظـــة

تقريبا صوتا يرتفع تحت نافذتى ولكنه لم يكن صوتا لطائر ، وانما كان أجمل من ذلك بكثير .. كان صـــوتا نقيا ، صـــوتا نضرا شجيا لفتـــاة فى الخامسة عشرة .. فرفعت رأسى فجأة كانسان أدركه الفزع ، وأخذت أستمع فى نهم الى الاغنية التى كانت ترددها الصبية فى نغم بطىء حزين كأنه هديل الحمام .. فجاءنى صوتها ينوح قائلا :

كان ذلك فى شارع « ماى » ..

حيث اعتدى على قهرا ثلاثة أشقياء ..

ثلاثة ملاعين هجموا على ..

ولم أستطع أن اعبر عن مدى مرارة الصدمة التىاحسست بها فى تلك اللحظة .. واستطرد الصوت يقول :

لقد هجموا على وطرحونى أرضا

ومر شاب من حينا مصادفة

فقلت له : اننى فى محنة ..

فبلغ ذلك لفتيان حينا الشجعان !

فقال لى : « انى هززت شجرة البلوط

ونزعت منها كثيرا من الاغصان »

فأوسعهم ضربا حتى تركونى

وفررت وحذائى ممزق ، وكذلك ملابسى

لسوف أرقص مع هذا الفتى فى يوم العيد

ولم يسبق لىأنسمعت هذهالاغنية من قبل ،وكنتلاأستطيع أن أسمع المزيد من كلماتها التى كانت تحمل بين طياتها شكوى

مفهومة وغامضة معا .. كما غنت الفتاة كذلك أغنية تقص شجارا وقع بين مجرم وبين رجال البوليس ، وتتحدث عن لص يقابل شخصا ويرسله الى زوجته بهذه الرسالةالرهيبة : « انى قتلت رجلا وقبض على » ، وأغنية أخرى (١) جاء بها : أن سيدة ذهبت الى قصر « فرساى » لتشكو مجرما الى الملك ، وأن صاحب الجلالة قد ثار لذلك ، وقال متوعدا المذنب انه : « سيجعله يرقص دون أن تكون هناك « أرضية » تحت قدميه ! »

كانت الصبية تردد كل تلك الاغانى فى نغمة حلوة تفيض بالرقة والحنان ، وفى صوت لم تسمع أذن امرىء قط أشجى ولا أعذب منه ! حتى أننى جمدت فى مكانى محطما مبهوتا تغمرنى الحسرة والاسف ! فقد كانت كل تلك الكلمات القظيعة المنبعثة من هذا الفم النضر الجميل شيئا يبعث على الاشمئزاز حقا .. كانت تبدو وكأنها لعاب قوقعة فوق وردة يانعة !

وما أنا بمستطيع أن أصور ما كنت أشعر به وقتئذ ، لقد كنت مجروحا ، ومسرورا فى آن واحد ! ان لهجة الكهف والليمان ، هذه اللغة الدامية الفظة ذات الرنة الكئيبة والطابع العامى (٢) التى امتزجت بصوت فتاة يافعة فى فترة انتقال لطيفة بين صوت طفلة وصوت امرأة ، كل تلك الالفاظ رديئة

---

(١) ترجمنا مضمون هذه الاغنية بمعناها فحسب لتعذر نظمها فى أبيات موزونة ومقفاة كما وردت فى النص الفرنسى

(٢) اللهجة الشائعة بين الدهماء والطبقات المنحطة او الجاهلة

الصياغة كانت الفتاة تغنيها ، وترتلها ، وتنظمها دررا ثمينة ،

آه ! ما أشد عار السجن وشناعته ! ان فيه لسما يلطخ كل شيء . كل شيء فيه يذبل ، حتى أغنية فتاة لا تتجاوز الخمسة عشر ربيعا .. اذا عثرت فيه على طير ، وجدت جناحه ملطخا بالوحل .. وان قطفت به زهرة وشممتها ، تأذيت من رائحتها البغيضة

آه لو كنت أستطيع الفرار ، لجريت عندئذ خلال الحقول بكل ما أوتيت من قوة وعزم !

كلا ، فليس ينبغي أن اجرى وقتئذ ، فذلك يلفت الانظار ويبعث على الريبة والشك ، بل ان الامر على العكس ، اذ يجب على أن أسير فى تؤدة وأنا أغنى مرفوع الرأس .. يجب أن أحاول جاهدا أن أحصل على قميص عتيق مفتوح أزرق اللون وبه رسوم حمراء ، فهذا يحكم التنكر ، اذ أن كل بائعى الخضر فى الضواحى يلبسون مثل ذلك

انى أعرف على مقربة من « أركوى » (١) أجمة من الاشجار بجوار مستنقع من المستنقعات حيث كنت أتردد مع رفاقى لصيد الضفادع فى يوم الخميس من كل أسبوع عندما كنت طالبا بالمدرسة الثانوية ، وسوف أختبىء هناك الى أن يهبط الظلام ، ثم استأنف سيرى تحت جنح الليل كى أذهب الى «فانسين» .. كلا ، كلا .. فسوف يحول النهر هناك بينى

---

(١) مكان فى ضواحى باريس

وبين المضى قدما ، سوف أيمم آذن شطر « أرباجون » ـ وسوف يكون من الاوفق أن أتجه ناحية « سان جرمان » ، ثم أذهب الى « الهافر » (١) واستقل اية سفينة الى انجلترا ـ ولكن ما جدوى كل ذلك ؟ اذلا أكاد اصل الى « لونجيمو » حتى يمر بى جندى من رجال البوليس ويطلب الى أن ابرز بطاقتى الشخصية ! .. اننى هالك لا محالة ! لقد ضعت !

آه ! يا لى من حالم بائس ! على اذن أن أحطم الجدار أولا .. أن أحطم الجدار الذى يسجننى وسمكه ثلاث أقدام !.. الموت يا الهى !.. الموت !

عندما افكر فى أنى أتيت الى هنا ، الى « بيستر » ، وأنا غلام صغير لأرى البئر الكبيرة ... والمجانين آه !

□

وفيما أنا عاكف على كتابة هذا كله ذوى نور مصباحى وطلع الفجر .. ثم دقت ساعة الكنيسة الصغيرة تعلن السادسة

ما معنى ذلك ؟ .. أن حارس زنزانتى النوبتجى دخل لتوه عندى وخلع قبعته ، ثم حيانى معتذرا عما سببه لى من ازعاج ، وطلب منى أن أعين له ما اريده طعاما لفطورى ، طلب منى هذا ، وهو يحاول جاهدا ان يكسب نبرات صوته الغليظ الخشن مسحة من الرقة والظرف

فاجتاحتنى رجفة عاتية ، وهمس فى أعماقى صوت يقول :

---

(١) ميناء فرنسى على بحر المانش

« ترى أيتم اليوم تنفيذ الحكم ؟ »

نعم .. انه اليوم !

لقد حضر مدير السجن بنفسه لزيارتى وسألنى كيف يستطيع أن يرضينى وكيف يمكن أن يكون نافعا لى فى اى شىء ، وعبر لى عن امله فى ألا تكون لدى أية شكوى منه أو من مرءوسيه ، ثم سألنى فى اهتمام عن صحتى ، وعن الحال التى قضيت فيها الليل .. وخاطبنى بقوله : « ياسيدى » وهو يغادر الزنزانة !

انه اليوم !

ان هذا السجان لا يعتقد أن لدى شكوى منه أو من مرءوسيه .. انه على حق ، فسوف لا تنفعنى الشكوى .. انهم قد قاموا بواجبهم فحرسونى خير حراسة ، وفوق هذا ، فقد كانوا مؤدبين عند وصولى وعند رحيلى .. افلا ينبغى اذن أن أكون راضيا مسرورا ؟

انهذا السجان الطيب انما يمثل السجن مجسما ، بابتسامته الساذجة العذبة ، وكلماته الرقيقة اللطيفة ، وعينه التى تمتدح وتتجسس ، ويديه الضخمتين العريضتين .. ان سجن « بيستر » قد تقمص هذا الرجل .. كل شىء من حولى هو سجن بالنسبة الى ! انى أجد السجن فى جميع الصور والاشكال : أجده فى صورة الانسان كما أجده فى شكل القضبان أو فى المزاليج والاقفال .. فهذا الجدار سجن من الحجر ، وذاك الباب سجن من الخشب ، وهؤلاء الحراس

سجن من لحم وعظم .. ان السجن كائن خفى رهيب شامل لا يتجزأ ، نصفه سكن ونصفه انسان ، وأنا فريسته ، وهو يحيطنى بمخالبه ويحتضـــننى بكل جوارحه وثناياه ، فهــو يغلق على جدرانه المبنية من الجرانيت ، ويقفل على بأقفال من الحديد ، ويراقبنى بعينى السجان

آه ! يالى من بائس . ماذا سيحدث لى ؟ ماذا سيفعلون بى ؟



الكاهن

انني الان هادىء ، فقد انتهى كل شىء ، أنتهى تمــاما .. لقد خرجت من دوامة القلق المرعبة التى كانت قد القتنى فيها زيارة الطبيب . ذلك انى أعترف بأنى كنت لا أزال آمل ، أما الان ، والحمد لله ، فلم يعد ثمة أمل لى

وهذا هو ما حدث منذ لحظة :

حينما دقت الساعة معلنة السادسة والنصف ــ بل ان ذلك كان فى الربع الاخير من هذا النصف ــ فتح باب زنزانتى من جديد ودلف اليها شيخ أشيب الشعر ، يرتدى «ردنجوتا» قاتم اللون . وفتح الرجل « الردنجوت » قليلا فرأيت ثيابه البيضاء ، « وياقته » الناصعة . لقد كان قسيسا

لم يكن هذا القسيس واعظ السجن ، وهذا أمر كئيب . وجلس الرجل قبالتى ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتســامة عريضة ، ثم هز رأسه ورفع بصره الى الســماء ، أعنى الى السقف ، سقف الزنزانة ! .. لقد فهمت !

وقال لى رجل الدين :

ــ أأنت على استعداد يابنى ؟

فأجبته قائلا فى صوت مختنق :

ـ لست مستعدا ولكنني « جاهز » !

ومع ذلك ، فقد غامت عيناى ، واضطرب بصرى ، ونضح من كل أعضاء جسمى عرق بارد غزير ، وأحسست بصدغى ينتفخان ، وامتلأت أذناى بالطنين

وكان الشيخ الطيب يتكلم ، بينما كنت أترنح على مقعدى كانسان نائم ، أو هذا هو على الأقل ما بدا لى فى تلك اللحظة، وأحسبنى أذكر أنى رأيت شفتيه تتحركان ، كما رأيت بريق عينيه ، واهتزاز يديه

وفتح باب الزنزانة مرة أخرى ، فأخرجنى صرير المزاليج من ذهولى وقطع على الرجل حديثه ، ثم دخل سيد لم أره من قبل ، يرتدى ثيابا سوداء ومعه مدير السجن . وقدم الرجل نفسه الى ، وحيانى فى احترام عميق . وكانت ترتسـم على وجه الرجل مسحة من حزن « رسمي » مصطنع ، هو نفس الحزن الذى تراه على وجه اللحاد « الحانوتى » ومعاونيه ، وكان يمسك فى يده ورقة ملفوفة

وقال لى الرجل وهو يبتسم ابتسامة مؤدبة :

ـ سيدى .. انى « محضر » من قبل محكمة باريس الملكية، ويشرفنى أن أحمل لك رسالة من قبل السيد النائب العام

فأجبته قائلا بعد أن ذهب عنى أثر الهزة الاولى ، واستعدت حضور ذهنى كله :

ـ انه السيد النائب العام ذاته الذى طالب برأسي فى الحاح، وانه لشرف كبير لى ياسـيدى أن يكتب الى ، وآمل أن يثلج

موتى صدره ويدخل على نفسه أبلغ السرور ، اذ يشق على أن أعتقد أنه ألح فى طلب موتى بحماس كبير فى الوقت الذى لن يهتم فيه بهذا الامر بعد الآن

لقد قلت هذا كله وسكت لحظة ، ثم استطردت أقول فى صوت ثابت النبرات : « اقرأ ما عندك اذن يا سيدى ! »

فأخذ « المحضر » يقرأ على رسالة طويلة ، وهو يتغنى فى نهاية كل سطر ، ويتردد فى وسط كل كلمة • كان ذلك رفضا للطلب الذى تقدمت به لاستئناف الحكم • وأضاف الرجل قائلا بعد أن فرغ من تلاوة رسالة النائب العام ، ودون أن يرفع بصره عن أوراقه المدموغة : « ان الحكم سينفذ اليوم فى ساحة الاعدام ، وسوف نرحل فى تمام الساعة السابعة والنصف الى سجن « لاكونسيير جورى » • هل لك أن تتفضل فتتبعنى يا سيدى العزيز ؟ »

وكنت لم أعد أنصت الى الرجل منذ وقت ليس بقصير •وكان مدير السجن يتبادل الحديث مع القسيس ، بينما ظلت عينا «المحضر » مثبتتين على أوراقه ، وكنت أنا الى جوار الباب الذى كان لايزال مواربا •آه ! أيها التعس ! هناك فى الدهليز أربعة حراس معهم بنادقهم !

وأعاد « المحضر » سؤاله على وهو ينظر الى فى هذه المرة ، فأجبته قائلا :

ــ سأتبعك يا سيدى فى أى وقت تريد • انى رهن اشارتك!

فحيانى قائلا وهو يتهيأ للانصراف :

ـ سوف أتشرف بالحضور لاصطحابك معى بعد نصـــف ساعة

وانصرف الجميع عندئذ وتركونى وحدى

□

يا الهى ! أما من وســـيلة للفرار ؟ أية وســـيلة كانت ؟ يجب أن أهرب ٠ هذا لابد منه ، وفى الحال ! من الابواب ، من النوافذ ، أو من خلال فتحات أخشاب السقف ، حتى لو كلفنى هذا أن أترك لحمى على هـــذه الالواح ! ياللغضـــب ! يا للشياطين ! يا للعنة ! لسوف تلزمنى أشهر بأكملها لنقب هذا الجدار ، ان كانت هناك آلات جيـــدة ، مع أنى لا أملك مسمارا واحدا ، ولم تعد أمامى حتى ساعة واحدة !



الفصل الثالث

الطريق إلى الموت

فى سجن ((لاكونسيير جورى))

هأنذا قد نقلت كما قال « المحضر » ، غير أن الرحلة جديرة بأن تروى

كانت الساعة تدق السابعة والنصف عندما ظهر المحضر مرة أخرى على عتبة زنزانتى . وقـــال لى الرجل : « انى فى انتظارك ياسيدى »

يا للأسف ! انه كان ينتظرنى حقا ، وكان معه آخرون !

فنهضت من مكانى وخطوت خطوة واحدة ، فبدا لى لحظتها أنى سأعجز عن أن أخطو خطوة أخرى لشدة ما كنت اشعر به من ثقل فى رأسى وخور فى ساقى ، ولكنى مع ذلك تمالكت نفسى ، وتابعت السير فى شىء من الارادة والثبات . والقيت نظرة أخيرة على سجن «بيستر» قبل أن أغادره ـ فقد كنت أحب زنزانتى هذه ـ ويؤسفنى أنى تركتها خالية ومفتوحة ، ممـا أكسبها مظهرا غريبا !

انها لن تظل هكذا طويلا على كل حال ، فقـــد كان حاملو مفاتيح السجن يقولون انهم ينتظرون شخصا سوف ينزل فيها فى هذه الليلة ، وهو رجل محكوم عليه، كانت محكمة الجنايات بصدد النظر فى أمره فى هذه الساعة

ولحق بنا الواعظ فى نهاية الدهليز . وكان الرجل قد فرغ

للتو من تناول طعامه

وعند خروجي من الزنزانة ، أمسك مدير السجن بيدي في عطف ، وشدد على الحراسة بأربعة جنود من حراس السجن القدامى

وأمام باب مستشفى السجن ، صاح بي شيخ يحتضر قائلا : « الى اللقاء ! »

وبلغنا الفناء واستنشقت الهواء ، فأراحني هذا بعض الشيء ولم نمش طويلا ، اذ كانت هناك عربة تجرها جياد قوية واقفة في الفناء الاول .. آه ! انها نفس العربة التي كانت قد نقلتني الى هنا . كانت من نوع العربات المستطيلة المكشوفة ،ومقسمة الى قسمين بقضبان من حديد ، تتقاطع على شكل شبكة شديدة الكثافة ، وكان لكل قسم من قسميها باب ، أحدهما في مقدمة العربة ، والثاني في مؤخرتها . وكانت العربة بأسرها شيئا بالغ القذارة ، أسود اللون حالكه ، ومغطى بالغبار ، الى حد أن عربة نقل الموتى كانت تبدو الى جوارها كأنها عربة لتتويج الملوك

وقبل أن أدفن في هذا القبر ذى العجلتين ، ألقيت نظرة على الفناء ، نظرة انسان يائس ، كان يأمل بها أن تتداعى من أمامه الجدران . كان الفناء وهو مكان صغير مزروع بالاشجار ، كان ممتلئا بالمتفرجين أكثر مما كان يوم تكبيل المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة بالاصفاد اذ كان الناس قد احتشدوا بسرعة مذهلة

وكان مطر الخريف يتساقط وقتئذ كما حـــدث يوم رحيل السجناء المكبلين بالسلاسل ، وهو مطر دقيق بالغ البرودة ، لا يزال يهطل فى هذه الساعة التى أكتب فيها ، وسوف يستمر طول النهار دون شك ، وسوف يستمر كذلك حتى بعـد أن أرحل عن هذه الدنيا

وكانت الطرق مملوءة بالمياه « وبالمطبات » ، وكان الفناء غارقا فى الماء والوحل ، وخامرنى ساعتها شعور بالسرور لرؤية هذا الجمهور فى الوحل

وصعدنا الى العربة ، فركب المحضر مع أحد الحراس فىالقسم الامامى منها وركبت أنا مع القسيس وحارس آخر فى المؤخرة، وكان معنا أربعة جنود على ظهور الخيل يحيطون بالعربة ،وهكذا كان هناك ثمانية رجال ـ اذا استثنينا سائق العربة ـ يحرسون رجلا واحدا

وفيما كنت أهم بالصعود الى العربة رأيت امرأة عجوزا ذات عينين رماديتين كانت تقـــول : « انى أفضل هذا كثيرا على السلاسل ! »

اننى افهم ذلك ، فهو منظر يحيط به المرء بنظرة واحدة ، يحيط به فى سهولة وسرعة أكثر مما يحيط بمنظر السلاسل ، وهو منظر جميل مثل هذا المنظر الاخير ، ولكنه أكثر منه راحة، وليس فيه ما يسليك ، اذ أنه ليس هناك سوى رجل واحد ، وعلى هذا الرجل وحده يقع من الكوارث ما يعادل الكوارث التى تقع على كل المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة مجتمعين ، غـــير ان

الشقاء فيه ليس موزعا بين كثرة من الناس ، وانما هو مركز ، كالخمر المركزة تكون أكثر لذة للشاربين

وتحركت العربة فند عنها صوت مكتوم وهى تمر من تحت قبوة الباب الكبير، ثم خرجت الى عرض الشارع ، فأغلق خلفها باب سجن « بيستر » الثقيل . وكنت احس فى ذهول بانى محمول كأنسان فاقد الوعى ، لايستطيع أن يتحرك أو يصيح، ويشعر بأن أناسا يدفنونه ، وكان رنين الاجراس الصغيرة المعلقة فى رقاب الخيل يصل الى سمعى فى غير وضوح ، تلك الاجراس التى كانت تجلجل بطريقة منتظمة فى رقاب جياد العربة وكأنها مصابة « بالزغطة » ، وكانت عجلات العربة المغطاة بالحديد تتخبط على الطريق المرصوف ، أو تحتك بصندوق العربة وهى تتنقل من « مطب » الى « مطب » ، محدثة صوتا يختلط بوقع سنابك الخيل التى تحيط بالعربة لحراستها، وقرقعة السوط الذى يحمله السائق ، كل ذلك كان يبدو لى كأنه دوامة تحملنى وتلفنى فى طياتها

ومن خلال قضبان نافذة صغيرة فى العربة كانت مفتوحة امامى ، كانت عيناى مثبتتين بصورة آلية على كلمات محفورة بأحرف كبيرة فى الجدار فوق الباب الرئيسى لسجن «بيستر»: « ملجأ الشيخوخة » . وكنت أقول فى نفسى : عجبا ! يبدو أن هناك أناسا يشيخون هنا !

وكما يفعل المرء بين اليقظة والنوم ، أخذت أقلب هذه الفكرة على كل جوانبها فى نفسى الخاملة من الالم، وفجأة، تغير

المنظر الذي كنت أراه من خلال تلك الطاقة الصغيرة فى اللحظة التى انتقلت فيها العربة من الشارع العـــريض الى الطريق الرئيسى ، وأخذت أبراج كنيسة « نوتردام » تبدو لعينى باهتة زرقاء في ضباب باريس من خلال ذلك المنفذ الضيق ، فتغيرت كذلك وجهة نظري على الفور . ذلك انى كنت قد اصبحت آلة مثل هذه العربة . وأعقبت فكرة سجن « بيستر » فكرة أبراج « نوتردام » ، فقلت فى نفسى وأنا أبتسم فى غباء : ان الذين يكونون فى أعلى البرج حيث يوجد العلم ســـوف يرون مرور العربة على صورة أوضح

وأظن ان القسيس قد استأنف حديثه معى فى تلك اللحظة بالذات ، فتركته يتكلم وانا أستمع اليه فىصبر ، اذ كان يطن فى أذنى هدير عجلات العربة ، مختلطا بوقع سنابك الخيـــل ، وقرقعة السوط ، وكان هذا الصوت الاخير صوتا اضافيا

وجلست أنصت فى صمت الى وقع هذا الكـــلام الذى كان يطرق أذنى على وتيرة واحدة ، كأنه خرير ماء النافورة ، فقد كان كلامه يزيد خواطرى خمولا على خمول ، وتمر الفاظه من أمامى متنوعة دائما ولكنها دائما نفس الشيء ، شأنها شـــأن الاشجار المرصوصة على جانبى الطريق العريض ، عندما هزنى فجاة صوت « المحضر » الموجز المتقطع ــ وكان جالســا فى المقدمة ــ اذ جاءنى يقول فى لهجة تكاد تفيض مرحا : « حسنا يا سيدى القسيس ! ما هو الجديد الذى تعرفه ؟ »

وكان الرجل وهو يقول ذلك ملتفتا نحو القسيس ، فلم يرد

عليه هذا الاخير ، اذ كان يتحدث الى دون انقطاع ، وكان صوت العربة يصم أذنيه عن السماع • فاستطرد « المحضر » قائلا وهو يرفع عقيرته فى هذه المرة ، كى يعلو صوته على هدير العجلات : « حقا انها عربة جهنمية ! » وسكت لحظة قصيرة ثم أردف يقول : « انها « المطبات » دون شك ، هى التى تجعل أحدنا لا يسمع الآخر . ماذا كنت اريد أن أقول ؟ آه ! نعم ، قل لى ياسيدى القسيس لو تفضلت .. هل تعرف الخبر الجديد فى باريس اليوم ؟ »

فانتفضت كما لو كان الرجل يتحدث عنى ، بينما أجابه القسيس قائلا بعد أن سمعه أخيرا :

ـ كلا ، لم أجد متسعا من الوقت لقراءة صحف الصباح ، وسوف أرى ذلك فى المساء • اننى حينما أكون مشغولاً هكذا طول اليوم ، أوصى البواب بأن يحتفظ لى بالصحف حتى أقرأها عند عودتى فى المساء

ـ أوه ! من المستحيل أنك لا تعرف خبر باريس ! خبر هذا الصباح !

وهنا تدخلت فى الحديث قائلا :

ـ أحسب أنى أعرف هذا الخبر

فنظر الى المحضر ثم قال :

ـ أنت ! أحقا ؟ اذن فما هو رأيك ؟

فقلت له :

ـ انك محب للاستطلاع !

فأجابنى الرجل بقوله :

ـ لماذا ياسيدى ؟ ان لكل منا رأيه السياسى ، وانا أحترمك الى حد أنى أعتقد أن ليس لك رأى فى هذا الموضوع • اما انا فانى موافق تماما على اعادة تكوين الحرس الوطنى . لقد كنت جاويش سريتى وكان ذلك حقا شيئا لطيفا للغاية . .

فقاطعته قائلا :

ـ كنت أظن انك لا تعنى هذا الخبر

ـ واى خبر لديك اذن ؟ لقد كنت تقول أنك تعرف الخبر

ـ كنت أتحدث عن خبر آخر تهتم به باريس كذلك

ولم يفهم الغبى ، غير أن حبه للاستطلاع تيقظ ، فقال فى لهفة :

ـ خبر جديد ؟ وانى لك أن تعرف هذه الاخبار بحق الشيطان ؟ ما هو هذا الخبر الذى لديك اذن ياسيدى العزيز ؟ أتعرف هذا الخبر يا سيدى القسيس ؟ هل انت أكثر منى دراية بهذه الاخبار ؟ أنبئونى بهذا الخبر من فضلكم . ما الذى حدث ؟ ألا تفهموننى ؟ انى أحب الاخبار لانى أقصها على السيد رئيس المحكمة فهذا يسليه كثيرا

وأخذ المحضر يهذى بمئات من مثل هذا الهذيان وهو يلتفت نحو القسيس تارة والى تارة أخرى ، فكنت لا أرد عليه الا بهزة من كتفى ، فقال لى آخر الامر :

ـ حسنا ! فيم تفكر اذن ؟

ـ أفكر فى أنى لن أفكر بعد هذا المساء !

ـ آه ! أهو كذلك ؟ .. هيا ! انك حزين أكثر مما ينبغي ؛ لقد كان السيد كاستانج (١) يتحدث رغم محنته

وسكت الرجل لحظة ثم أضاف يقول : « لقد رافقت كذلك السيد « بابا فوان » (٢)، وكان يرتدى قبعته الفاخرة ويدخن سيجارا . أما فتيان مدينة «لاروشيل» (٣) فقد كانوا لايتحدثون الا فيما بينهم ولكنهم كانوا يتحدثون على أية حال

وصمت المحضر لحظة أخرى ثم عاد يقول : انهم كانوا مجانين ! كانوا متحمسين للغاية ! وكان يبدو عليهم أنهم يحتقرون كل الناس . أما أنت ايها الشاب فانى أجدك مفكرا حقا

فقلت له :

ـ أنا شاب ؟. انى اكبرك فى السن ! ان كل ربع ساعة يمر يجعلنى أشيخ بمقدار سنة !

فالتفت « المحضر » نحوى ونظر الى فى دهشة تنطوى على الغباء لبضع دقائق ثم شرع يضحك ضحكا ثقيلا وهو يقول :

ـ أوه ! عجبا ! أتريد أن تمزح ؟ انت أكبر منى سنا وقد أكون فى سن جدك !

---

(١) مذنب سبقت الاشارة اليه فى الفصل الثانى وهو مجنون رهيب أعدم لانه دس السم لصديق له كان يتولى علاجه

(٢) مجنون رهيب كان يقتل الاطفال بضربة من سكين فى رءوسهم ، ورد ذكره فى نفس الفصل

(٣) ضباط صف اربعة أحدهم يدعى «بوريس» وقد أشرنا اليهم

فأجبته قائلا فى جد ورزانة :

ـ انى لا أرغب فى المزاح

وفتح الرجل علبة طباق كانت معه وهو يقول :

ـ خذ هذه ياسيدى العزيز ولا تغضب . خذ مضغة من الطباق ولا تحتفظ لى فى نفسك بأية موجدة على

ـ لا تخش شيئا فلن يتسع الوقت امامى للغضب عليك

وفى تلك اللحظة ، ارتطمت علبة الطباق بالقضبان التى كانت بينى وبينه فى عنف ، من جراء أحد « المطبـــات » فسقطت مفتوحة من يده تحت قدمي الجندى فصاح « المحضر » قائلا :

ـ يا لهذه القضبان اللعينة !

ثم التفت الى وهو يقول : « حسنا ! الست شقيا ؟ هأنذا قد فقدت كل ما معى من طباق !

فأجبته قائلا وانا أبتسم ابتسامة شاحبة :

ـ انى أفقد اكثر مما تفقده أنت

وحاول الرجل أن يجمع طباقه وهو يتمتم قائلا من بـين اسنانه :

ـ أكثر مما أفقد ؟ هذا كلام يسهل قوله ! سوف أبقى بغير طباق حتى نبلغ باريس ! ان هذا لشىء رهيب !

وواساه الواعظ فى تلك اللحظة ببعض كلمات العزاء . ولست أدرى ما اذا كنت مفكرا مهموما ، ولكن بدا لى أن كلمات القسيس كان يتابع بها الوعظ الذى كان قد وجه الى بدايته ، ورويدا رويدا سار الحديث بين القسيس و « المحضر » ، فتركتهمـــا

يتحدثان معا وانصرفت الى خواطرى

ولا شك فى انى كنت لا أزال مستغرقا فى التفكير حينمـــا اقتربنا تماما من أبواب باريس ، ولكن خيل الى أن ضوضـاء المدينة صارت أكثر من المألوف . وتوقفت العربة لحظة أمام « كشك » الجمارك حيث قام بتفتيشها موظفو جمرك البلدية ولو أن العربة كانت تحمل خروفا أو ثورا يساق الى المذبح لوجب أن تدفع من أجله مبلغا من المال ، غير أن الرأس البشرى لاتدفع عنه رسوم جمركية ، فمررنا

واجتزنا الضواحى ثم دخلت العربة مسرعة فى تلك الشوارع العتيقة المعقدة فى حى « سان مارسو » وحى « لاسيتى » التى تتلوى وتتقاطع كأنها آلاف الطرق فى مدينــة النمل ، وكان ضجيج العربة قد أصبح فوق « بلاطها » عاليا متتابعا الى حد أننى لم أعد أسمع أى شىء آخر . وكنت كلما ألقيت نظرة من خلال الطاقة الصغيرة المربعة ، بدا لى أن أمواجا من المارة كانت تتوقف لتنظر الى العربة المنكودة وأن شراذم من الصبية كانت تعدو وراءها ، كما بدا لى أنى كنت أرى هنا وهناك ، من حين لآخر ، عند مفارق الطرق رجلا أو امرأة عجوزا فى ثياب مهلهلة ـ وأحيانا كليهما معا ـ وهما يمسكان فى أيديهما برزمة من الورق المطبوع (١) كان المارة يتخطفونه ، ويفتحـــان فميهما

---

(١) سبقت الاشارة الى أن أحكام الاعدام وأوقات تنفيذها كانت تطبـع على أوراق تباع الواحدة منها لقاء جزء من المليم وصـفه المؤلف فى موضع سابق بأنه « صلدى » ملطخ بالدم

كانهما يصيحان صياحا عاليا

وكانت الساعة تدق معلنة الثامنة والنصف فى بناء المحكمة لحظة وصولنا الى فناء سجن « لاكونسييرجورى » . ان منظر هذا السلم الكبير ، وتلك الكنيسة الصغيرة السوداء ونوافذ « زنزانات » السجناء الكئيبة قد ارسل فى بدنى برودة الثلج، وبدا لى فى اللحظة التى وقفت العربة فيها اخيرا أن ضربات قلبى على وشك أن تتوقف كذلك

واستجمعت أطراف قواى الواهنة حينما فتح باب العربة فى مثل وميض البرق ، وقفزت خارج هـذه الزنزانة المتحركة وتقدمت فى خطوات واسعة تحت قبوة السجن بين صفـين من الجنود . آه ! ها هو ذا الجمهور قد تجمع سريعا فى طريقى

□

وكنت أشعر بأنى اكاد اكون حرا وعلى سجيتى طيـلة اللحظات التىاجتزت فيها دهاليز دار القضاء ، ولكن عزمى قد تخلى عنى عندما فتحوا أمامى ابوابا منخفضـة وممرات داخلية وسلالم سرية ، ودهاليز اخرى طويلة مخنوقة ومكتومة لا يطرقها الا الذين يصدرون الاحكام أو تصدر عليهم الاحكام

وكان « المحضر » فى رفقتى على الدوام ، أما القسيس فكان قد تركنى ليعود بعد ساعتين . ان الرجل كانت لديه مشاغله

وقادونى الى مكتب المدير حيث أسلمنى المحضر اليـه « يدا بيد » . لقد كان هناك تبادل ، اذ رجاه المدير أن ينتظر

لحظة قائلا له أن لديه صيدا سيـــكون معدا للتسليـــم على الفوركى ينقله مباشرة الى سجن « بيستر » فى نفس العربة . فقلت لنفسى ان هذا الصيد هو دون شك ذلك المحكوم عليـه الذى يجب أن ينام الليلة على حزمة القش التى لم يتسع الوقت أمامى لأستهلكها

فقال « المحضر » للمدير : « حسنا ، سوف أنتظر لحظة ، وستقوم بعمل المحضرين (١) معا ان كان هذا ييسر الامور

وفى انتظار ذلك ، وضعونى فى مكتب صغير ملاصق لمكتب المدير ، حيث تركت وحدى وأوصدت الابواب على فى احكام

ولست أدرى فيم كنت أفـــكر ولا كم من الوقت مضى على هناك ، عندما طرقت أذنى ضحكة عنيفة مفاجئة أيقظتنى من حلمى . فرفعت عينى وأنا أرتجف ، فعرفت أنى لم أعد وحدى فى هذه الزنزانة ، اذ كان معى رجل فى نحو الخامسة والخمسين من عمره ، متوسط القامة ، محدودب الظهر ، أشيب الرأس بعض الشيء ، ووجهه حافل بالتجاعيد . وكانت أعضاء الرجل قوية عريضة ، أما عيناه فرماديتا اللون ، بهما حور بسيط ، وتعلو شفتيـــه ابتســـامة مرة . وكانت هيئتـــه تبعث على الاشمئزاز ، بقذارته وثيابه المهلهلة التى لا تكـــاد تســـتر الا نصف جسمه

ويبدو أن الباب كان قد فتح ليزج بهذا الرجل الى داخل هذه الزنزانة الصغيرة ثم أغلق مرة ثانية دون أن أفطن الى ذلك .

---

(١)يعنى محضرى التسليم والتسلم

آه لو كان الموت يأتى هكذا !

وأمعن كل واحد منا النظر الى وجه الآخر لعدة ثوان وهو يمد فى ضحكته التى كانت كحشرجة المحتضر ، وأنا نهب لمزيج من الدهشة والذعر

فقلت له أخيرا :

ـ من أنت ؟

فأجابنى الرجل قائلا :

ـ هذا سؤال عجيب .. أنا واحد منهم !

فأمدت عبارته متسائلا فى دهشة :

ـ واحد منهم ! ما معنى هذا الكلام ؟

ولاحظت أن هذا السؤال قد ضاعف مرحه

فصاح قائلا وهو يضحك فى قهقهة مدوية :

ـ معناه أن السكين ستلعب برأسى بعد ستة أسابيع كما ستداعب رأسك بعد ست ساعات .. ها ! ها ! ها ! يبدو أنك قد فهمت الآن !

والواقع أنى شعرت فى تلك اللحظة بأن الدماء تفيض من وجهى وبأن شعرى يقف فى رأسى . لقد كان هذا الرجل هو خليفتى فى سجن « بيستر » الذى كانوا ينتظرونه هناك . كان هو الرجل الذى صدر عليه اليوم حكم بالاعدام

وصمت الرجل لحظة قصيرة ثم تابع حديثه فقال :

ـ ماذا ترايد ؟ هذه هى قصتى . قصتى أنا . انى ابن الرجل

بائس أتعب « شـارلو » (١) نفسه ذات يوم للاسف فى ربط الحبل حول عنقه ، وكان ذلك في عهد المشنقة والحمد لله ، فلم أكد أبلغ السادسة من عمرى حتى وجدت نفسى بلا أب ولا أم. وكنت فى الصيف أتمرغ فى التراب على قارعـة الطريق كى يلقى الى بعضهم «صالديا» من خلال أبواب العربات . أما فى الشتاء فكنت أسير حافى القدمين فى الوحل وأنا أنفخ فى يدى المحمرتين من شدة البرد ، وكانت فخذاى تطلان من خـلال سروالى .

وبدأت أستعمل يدى فى سن التاسعة ، فكنت من حين لآخر أنشل جيبا أو أسرق معطفا . وفى سن العاشرة كنت « نشالا »، وما ان بلغت السابعة عشرة حتى صرت لصـا ، فكنت أحطم اقفال الحوانيت وأستعمل مفاتيح مقلدة . ثم قبض على بعد أن بلغت سن الرشد حسب نص القانون فأرسلونى الى الاشغال الشاقة للتجديف على ظهر السفن . ان الليمان شيء شاق ، فالمرء ينام فيه على لوح من خشب ، ويشرب ماء صرفا ، ويأكل خبزا أسود ، ويجر وراءه كتلة سخيفة من الحديد لا فائدة منها، ويتلقى ما تيسر من ضربات العصى وضربات الشمس . والى جانب هذا فانهم يقصون له شعره ، وأنا الذى كان لى شعر كستنائى جميل ! وعلى كل حال ، فهذا لايهم !

وقضيت مدة العقوبة : خمسة عشر عاما انتزعت من عمرى

---

(١) لفظة من اللفظات المستعملة فى لغة السجون ويقصد بها الجلاد (كما يقال عندنا « عشماوى »)

انتزاعا ! وكنت فى الثانية والثلاثين عندما أعطونى ذات صباح أمرا بالافراج عنى من الليمان ، مع سبعين فرنكا جمعتها لنفسى خلال خمسة عشر عاما من الاشغال الشاقة ، كنت أعمل خلالها ست عشرة ساعة فى اليوم ، وثلاثين يوما فى الشهر ، واثنى عشر شهرا فى السنة . وكان هذا سواء لدى ، فقد كنت أريد بهذه السبعين فرنكا أن أصبح رجلا شريفا ، وكنت انطوى تحت أسمالى البالية على مشاعر أكثر مما يوجد منها تحت ملابس قسيس ، ولكن .. فلتبارك الشياطين فى صحيفة السوابق ! لقد كانت وثيقة الافراج عبارة عن ورقة صفراء مكتوب عليها : « .. أفرج عنه من الليمان » ، وكان لزاما على أن أبرز هذه الورقة حيثما ذهبت ، وأن أقدمها كل ثمانية أيام الى عمدة القرية التى كانوا يرغموننى على الاقامة فيها . يالها من تزكية جميلة (١) ! لقد كان الناس يخافون منى ، وكان الصبيان يفرون عندما يروننى ، وكانت الابواب توصد فى وجهى اذا مررت ! ولم يشأ أحد أن يعطينى عملا ، فأنفقت السبعين فرنكا على طعامى ، ثم كان على أن أعيش ، فأبديت ساعدى المفتولين هنا وهناك ، ساعدى اللذين يصلحان تماما للعمل ، ومع ذلك فقد أقفلت فى وجهى كل الابواب . وعرضت أن أعمل اليوم بأكمله لقاء خمسة عشر مليما ، ثم بعشرة مليمات،

---

(١) يقصد التزكية المسجلة فى وثيقة الافراج عنه اذ جاء بها : « أفرج عنه من الليمان حيث كان محكوما عليه بالاشغال الشاقة بالتجديف فوق ظهر المراكب ... » .

وأخيرا بخمسة ! ولكن دون جدوى ، فماذا أفعل ؟

وشعرت ذات يوم بجوع شديد ، فكسرت بمرفقي زجاجا في واجهة حانوت خباز وخطفت رغيفا ، واستطاع الخباز أن يمسك بتلابيبي ، فلم أتمكن من أكل الرغيف ، وحكم علي بالاشغال الشاقة مدى الحياة في التجديف على المراكب ، وختموا كتفي بثلاثة أحرف من نار ، وسوف أريك هذا ان اردت • انهم يسمون هذا النوع من العدالة : « عائدا الى الاجرام ! »

هأنذا قد عدت الى الليمان ، وقد ألقوا بي في هذه المرة في ليمان « طولون » ، ووضعوني مع المجرمين العائدين الى الاجرام • وكان لزاما على أن أهرب ، ولتحقيق ذلك لم يكن أمامي الا أن أنقب ثلاثة جدران ، وأن أقطع سلسلتين ، وكان معي مسمار في هذه المرة

واستطعت أن أهرب ذات يوم فأطلقت مدافع الانذار • ذلك أننا معشر العائدين مثل كرادلة روما ، ملابسنا حمراء ، وتطلق لنا المدافع عند الرحيل • لقد اطلقوا مدافعهم جزافا وبلا نتيجة • وكنت في هذه المرة حرا بلا ورقة صفراء ، ولكن لم تكن لدي نقود كذلك

وقابلت رفاقا كانوا قد قضوا مدة العقوبة أو فروا من السجن ، فعرض على رئيسهم أن أكون واحدا منهم ، وكانوا قطاع طرق يغتالون الناس • فوافقت وأخذت أقتل لاعيش ، وكنا تارة نهاجم عربة نقل الركاب أو البريد ، واخرى نهاجم مسافرا يسير بمفرده ، وثالثة نهاجم تاجر ثيران يمتطي جوادا ،

فكنا نسلب النقود ونترك الدابة أو العربة تهيم كيفما اتفق، أما الرجل فكنا ندفنه تحت شجرة ، ونحرص على ألا تبرزقدماء، ثم نرقص بعد ذلك فوق الحفرة التى دفناه فيها ، حتى لاتبدو الارض كأنها نبشت حديثا

وهكذا شخت وانا مختبىء فى الاحراش ، أنام وأنا ألتحف السماء وأطارد من غابة الى غابة ، غير أنى كنت حرا وملكا لنفسى على الاقل . إن لكل شىء نهاية ، وهى نهاية لاتختلف عن سواها

واطبق علينا البوليس ذات ليلة ، فهرب زملائى ، ولكننى وقعت ـ وأنا أكبرهم سنا ـ فى مخالب هذه القطط التى ترتدى قبعات موشاة بالاشرطة ، فساقونى الى هنا !

وكنت قد تدرجت فى كل درجات السجون عدا هذه الدرجة، فسواء سرقت منديلا أو قتلت نفسا ، فان الامر يستوى من الآن فصاعدا بالنسبة الى ، فقد كانت هناك العودة الثالثة الى الاجرام ، التى طبقت عقوبتها على فى هذه المرة ، ولم يعد أمامى الا أن أمر بالمقصلة !

لم تستغرق قضيتى وقتا طويلا ، اذ أنى بدأت أشيخ حقا ولم أعد اصلح لاى شىء ! ان والدى قد مات شنقا وأنا سوف أموت بالمقصلة . تلك هى قصتى أيها الزميل ! »

وكنت قد مكثت طول الوقت مشدوها وأنا أصغى اليه ، ثم عاد الرجل الى الضحك بصوت اعلى مما كان يفعل فى البداية ، وهم بأن يصافحنى فتراجعت مذعورا الى الوراء !

فقال الرجل عندئذ :

ـ يبدو عليك انك شجاع أيها الصديق ، فلا تكن جبانا أمام الموت . اتفهمني ؟ انها لحظة سيئة ستقضيها فى ساحة الاعدام ، ولكنها ستنتهى بسرعة ! لشد ما أريد أن اكون هناك لاريك كيف يسقط الجسد ! لست أرغب بحق السماء فى استئناف الحكم ان ارادوا أن يعدمونى معك اليوم . ان نفس القسيس سيتولى أمرنا معا ، ولا يهمنى أن أحصل على مخلفاتك . هأنتذا ترى اننى ولد طيب ، أليس كذلك ؟ قل لى اذن ، الا ترغب فى صداقتى ؟

وخطا الى الامام خطوة ليقترب منى ، فقلت له وانا أدفعه بعيدا :

ـ شكرا لك ياسيدى

وما أن سمع الرجل اجابتى هذه ، حتى انفجر ضاحكا من جديد ثم قال :

ـ سيدى .. آه ! آه ! أنك ماركيز ! انك لماركيز !

فقاطعته قائلا :

ـ ياصديقى ! انى بحاجة الى أن أخلو الى نفسى ، فدعنى وشأنى

ودفعته جدية كلامى الى التفكير فجأة ، فهز رأسه الرمادى الذى يكاد يكون اصلع ، ثم حك بأظافره فى صدره ذى الشعر الكث الذى كان يبدو من خلال قميصه المفتوح وتمتم قائلا من بين أسنانه :

ــ لقد فهمت . انك تفكر فى القسيس !

وبعد بضع دقائق من الصمت استطرد يقول ، وقد شاعت فى نبرات صوته رنة خجل :

ــ انت ماركيز وهذا حسن جدا ، ولكن لديك هنـــا « ردنجوتا » جميلا لن ينفعك فى شيء ! وسوف يأخذه السجن منك ، فأعطنى اياه فسوف أبيعه لاحصل على طباق

فخلعت « الردنجوت » الذى كنت أرتديه ، وأعطيته اياه ، فأخذ يصفق بيديه فى مرح ، كأنه طفل صغير ، ولكنه حين رأى أننى كنت أرتعـد فى قميصى قال لى : « انك ترتجف ياسيدى من البرد ، خذ هذه والبسها فالمطر يتساقط وسوف تبتل ، ثم انه يلزمك أن تكون أكثر وقارا وأنت فوق العربة »

قال هذا وهو يخلع سترته الخشنة المصنوعة من الصوف الرمادى ، ثم وضعها على كتفى وأدخل ذراعى فى كميها ، فتركته يفعل ذلك دون اعتراض أو مقاومة

وذهبت عندئذ لاتكىء على الجدار ، ولن أستطيع أن أصور الاثر الذى تركه هذا الرجل فى نفسى ، وكان قد أخذ يفحص « الردنجوت » الذى أعطيته اياه ، وتصدر عنه من لحظة الى أخرى صيحات تدل على السرور ، ثم أضاف يقول : « ان جيوبه جديدة تماما ؛ والياقة ليست بالية ! سوف أحصل فى مقابله على خمســـة عشر فرنكا على الاقل .. يا للسعادة ! سيكون لدى طباق طيلة الاسابيع الستة الباقية لى على قيد الحياة ! »

وفتح الباب مرة أخرى . لقد جاءوا لاخذنا نحن الاثنين :أنا الى الغرفة التى ينتظر فيها المحكوم عليهم بالاعدام ساعة التنفيذ ، وهو الى سجن « بيستر » . ووقف الرجل بين الجنود الذين كان عليهم أن يرافقوه ، وهو يقول لهم : « آه ! يا هؤلاء .. لا تخلطوا بيننا ، فقد تبادلنا ملابسنا أنا وهـذا السيد . لا تأخذونى بدلا منه ، يالشيطان ! ان هذا لم يعد يروق لى الآن وقد أصبح معى ما أستطيع به أن أحصل على الطباق ! »

▭

لقد اخذ منى هذا اللص العجوز « الردنجوت » لاننى لم أهبه اليه فى الحقيقة ، ثم أنه ترك لى سترته الكئيبة ، هـذه الخرقة البالية ، فكيف ستكون هيئتى اذن ؟

اننى لم أتركه يأخذ منى « الردنجوت » عن عدم اكتراث أو بداعى العطف عليه ، كلا ، ولكن لانه كان أكثر منى قوة ، ولو أنى رفضت ماطلب لضربنى بقبضة يده الضخمة

آه ! حسنا ! نعم ، انه الاحسان ! لقد كنت ساعتها أفيض بالمشاعر السيئة ، وكنت أتوق لان اخنق هذا اللص العجوز بيدى ، أو أن أسحقه سحقا تحت قدمى !

انى لاشعر بقلبى يطفح بالغضب والمرارة ، وأحسب أن مرارتى قد انفجرت ! حقا ان الموت يجعل الانسان شريرا غليظ القلب

وقادونى الى زنزانة ليس فيها الا جدران أربعة ، بنافذتها قضبان كثيرة من حديد وببابها عدد كبير من المزاليج والاقفال

وهذا أمر طبيعى

فطلبت منضدة ومقعــدا وأدوات للكتابة ، فأحضروا لى ماطلبت . ثم طلبت فراشا فحدجنى السجان بنظرة تطل منها الدهشة وكأنه يقول : « وماجدوى ذلك ؟ »

ومع ذلك ، فقد نصبوا لى سريرا حقيرا فى ركن الزنزانة ، ولكن جاء فى نفس الوقت حارس ليجلس معى فيمــا كانوا يسمونه « غرفتى » ! ترى هــل يخــافون أن أخنق نفسى بالفراش ؟

▭

الساعة الآن العاشرة

آه يا ابنتى المسكين ! سوف أموت بعد ست ساعات! وسوف أكون شيئا قذرا يلقى به على مناضد مدرجات كلية الطب ! وسوف يشرح الرأس فى جهة والجذع فى جهة أخرى ، ثم يلقى بما تبقى منى فى صندوق بمقبرة « كلامار »

هذا هو يا ابنتى ما ســـيفعله بأبيك هؤلاء الرجال الذين لايكرهنى أحد منهم ، والذين يرثون لحالى جميعــا ، والذين يستطيعون جميعا انقاذى . انهم سيقتلوننى فى الحال ، فهل تفهمين هذا يا « مارى » ؟ سيقتلوننى بكل برود ، وفى حفل رسمى لمصلحة المجتمع ! آه ! يا الهى العظيم !

مسكين أنت ياصغيرتى ! ان والدك الذى كان يحبك حبا لا مزيد عليه ، والدك الذى كان يقبل رقبتك الصغيرة المعطرة ، ولا تكف يده عن مداعبة خصلات شعرك الحريرى ، والذى كان

يأخذ وجهك الجميل المستدير فى يده ، وكان يطيب له أن تقفزى على ركبتيه ، والذى كان يجملك فى المساء تضمين يديك لتصلى لله !

من ذا الذى سيفعل لك كل هذا يا «مارى» بعد الآن ؟ من ذا الذى سيحبك ؟ ان كافة الاطفال فى سنك سيكون لهم آباء الا أنت يا مارى . كيف تفقدين يا ابنتى عيد رأس السنة ، والهدايا واللعب الجميلة ، والحلوى والقبلات ؟ كيف تفقدين أيتها اليتيمة البائسة عادة الاكل والشرب ؟

آه لو كان هؤلاء المحلفون قد رأوها على الاقل ، ابنتى « مارى » هذه الصغيرة الجميلة ! اذن لفهموا أنه يجب الا يقتل أب لطفلة عمرها ثلاثة أعوام !

وعندما تكبر ابنتى ، اذا قدر لها أن تكبر ، فماذا عسى أن يكون مصيرها ؟ ان أباها سيصبح ذكرى من ذكريات أهل باريس ! لسوف تحمر خجلا منى ومن اسمى ! انها ستكون محتقرة ، ينأى عنها الناس بجنوبهم ، وحقيرة وضيعة بسببى أنا ، أنا الذى احبها بكل ماق قلبى من حنان . آه يا « مارى » ياطفلتى الصغيرة المحبوبة ! أحقا انك ستخجلين منى وتشعرين نحوى بالاشمئزاز ؟

أنا .. يالى من بائس ! ويا للجريمة التى اقترفتها، ويا للجريمة التى أتسبب فى أن يقترفها المجتمع !

آه ! أصحيح حقا اننى سأموت قبل نهاية هذا اليوم ؟ أحقا أننى أنا هذا الرجل ؟ هذا الصوت المكتوم الصادر عن الصياح

الذى اسمعه فى الخارج ، وهذا السيل المرح من الجماهير التى تسرع على أرصفة نهر « السين » ، وهؤلاء الجنـود الذين يستعدون فى ثكناتهم ، وهذا القسيس بثيابه السوداء ، وهذا الرجل الآخر ذو اليدين الحمراوين ، هؤلاء جميعا هل هم من أجلى ؟ من أجلى أنا الذى سأموت ! أنا نفسى الذى استقر هنا حيا واتحرك وأتنفس ، واجلس امام هذه المنضدة التى تشبه اية منضدة اخرى ، ويمكن أن تكون كذلك فى أى مكان آخر ! أنا كذلك ، هذا الشخص الذى المسه واشعر به ، والذى ثيابه هذه طياتها !؟

■

آه لو كنت اعلم كذلك كيف صنعت هذه المنضدة وكيف صنع هذا المقعد ، وبأية طريقة يموت المرء بهما ! لكن هذا شىء رهيب ، انى لا أعرفه . ان اسم هذا الشىء يثير الرعب فى النفوس ولست أفهم على الاطلاق كيف استطعت أن أكتب هذه الكلمة وان انطق بها

ان تجمع الحروف التى تكون هذه الكلمة ومظهرها وشكلها قد خلقت جميعا لتوقظ فكرة مرعبة ، وان الطبيب المنحوس الذى اخترع هذا الشىء كان اسمه مسطورا فى لوحة القدر ! انها صورة غير واضحة وكئيبة للغاية تلك التى ترتبط عندى مع هذه الكلمة المشئومة ، وكل حرف من حروفها يبدو لى . كأنه جزء من تلك الآلة الرهيبة التى اظل اهدم وابنى أجزاءها الجهنمية فى نفسى دون انقطاع

اننى لا أجرؤ على السؤال عنها ، غير أن من المرعب الا أعرف ماهى ، ولاكيف أتصرف وأنا واقف عليها ، ويبدو لى ان بها مايشبه الارجوحة ، وانهم يجعلون المحكوم عليه ينام على بطنه. آه ! ان شعرى سوف يبيض لامحالة قبل أن يسقط رأسى !

ومع ذلك فقد لمحتها ذات مرة

كنت ذات يوم أمر فى عربة الى جوار ساحة الاعدام ، وكان ذلك فى نحو الساعة الحادية عشرة صباحا . وفجأة توقفت العربة عن المسير

وكان هناك جمهور غفير يحيط بالساحة ، وأخرجت رأسى من نافذة العربة فرأيت جموعا حاشدة تملأ المكان وتزحف على أرصفة نهر « السين » ، وكان الرجال والنساء والاطفال يقفون فوق سور النهر الحجرى ، ومن فوق الرءوس كان فى وسع المرء أن يرى منصة حمراء من الخشب كان يعدها ثلاثة رجال ..

كان ثمة شخص محكوم عليه بالاعدام سوف ينفذ فيه الحكم فى نفس اليوم الذى كانوا يعدون فيه الآلة

واشحت بوجهى قبل أن أرى ، وفى تلك اللحظة سمعت امرأة كانت تقف الى جوار العربة تقول لصبى : « عجبا ! انظر ! ان السكين لا تجيد القطع وسوف « يشحمون » المجرى حالا بقطعة من الشمع »

ومن المحتمل اليوم أنهم يفعلون ذلك الآن ، فقد دقت الساعة الحادية عشرة منذ لحظة ، ولاشك فى أنهم « يشحمون »

المجرى الآن

آه ! فى هذه المرة أيها التعس لن تستطيع أن تشـــيح بوجهك !

آه ! العفو العفو !

قد يصدر عنى العفو ، فالملك ليس غاضبا على . فليذهبوا اذن لاحضار محام . الى بالمحامى ، وبسرعة ! انى أقبل الاشغال الشاقة عن طيب خاطر ، والتجديف على السفن ، أقبل الاشغال الشاقة لمدة خمس سنوات أو عشرين سنة ، بل مدى الحياة ، وأقبل معها كى كتفى بالحديد الاحمر المحمى فى النار كما يشاءون .. ولكن ، ليعتقوا رقبتى فحسب !

ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة لا يزال يمشى ، ويروح ويغدو . انه يرى الشمس !



هذا القسيس

وجاء القسيس الواعظ

كان ابيض الشعر ، لطيف الشكل للغاية ، تبدو على ملامح وجهه علامات الطيبة والاحترام . كان فى الواقع رجلا ممتازا كريما ، فقد رايته فى هذا الصباح يفرغ ما فى جيبه فى ايدى السجناء ، فلماذا لايوجد فى صوته مايؤثر أو يدل على التأثر ؟ كيف يتفق أنه لم يقل لى بعد شيئا يؤثر فى تفكيرى أو يمس قلبى ؟

لقد كنت تائها فى هذا الصباح حتى أننى لم أكد أسمع ماقاله لى ، ومع ذلك فقد بدت لى كلماته عديمة النفع ، وبقيت غير متأثر بها . انها كانت تنزلق من فمه كما ينزلق هذا المطر البارد على هذا الزجاج المثلج

ومع ذلك فقد أراحنى مرأى الرجل بمجرد أن عاد الى جوارى ، فهو الذى لايزال بالنسبة الى الانسان الوحيد بين هؤلاء الرجال . لقد قلت هذا فى نفسى وقد شعرت بظمأ شديد الى سماع أية كلمة طيبة مواسية

وكنا جالسين ، هو على المقعد ، وأنا على السرير ، فقال لى :

ــ يابنى ..

وأحسست فى تلك اللحظة بأن كلمته هذه قد فتحت قلبى

المغلق ، واستمر القسيس فى حديثه قائلا : « أتؤمن بالله يا بنى ؟ »

ـ نعم يا أبى

ـ وهل تؤمن بالكنيسة الكاثوليكية البابوية الرومانية ؟

ـ نعم فى كثير من السرور

وهنا استطرد الرجل يقول :

ـ يبدو عليك أنك متشكك يابنى

ثم أخذ يتكلم فأطال الحديث ، وقال كلاما كثيرا . ولما ظن أخيرا أنه قد انتهى من حديثه ، نهض ونظر الى لأول مرة منذ شرع يتكلم ثم سألنى قائلا :

ـ حسنا.؟

فأكدت له أنى قد استمعت اليه ، فى شغف أولا ، ثم فى انتباه ثانيا ، ثم فى اخلاص ثالثا

ثم نهضت بدورى وأنا أجيبه قائلا :

ـ سيدى .. أرجوك أن تدعنى وحدى

ـ ومتى أعود ؟

ـ سوف أخبرك فى الوقت المناسب

فخرج الرجل عندئذ دون أن يبدو عليه اى أثر للغضب ، غير أنه كان يهز رأسه كما لو كان يقول فى نفسه : « انه غير مؤمن ! »

كلا .. فمهما انحدرت الى أسفل الدرك فأنا لست كذلك ، والله شهيد على أنى أؤمن به . ولكن ماذا قال لى هذا الشيخ ؟ انه لم يقل شيئا أحس به ، أو ألمس حنانه على أو يبكينى .

انه لم ينتزع من روحى شيئا ولم يخرج من قلبه شيء يصل الى قلبى ، شيء يصدر من القلب الى القلب ، بل على العكس ، لقد حدثنى عن اشياء اراها غامضة سطحية من الممكن ان تنطبق على كل شيء وعلى كل انسان ، عن أشياء هى أدنى الى البلاغة منها الى التعمق ، وسطحية فى حين أن الحاجة كانت ماسة الى البساطة . كان حديثه ضربا من الوعظ الوجدانى والتمجيد الدينى ، تتخلله من آن لآخر عبارة لاتينية ، أو نص للقديس « أوجستان » أو القديس « جريجوار » لست أدرى أيهما ! ثم انه كان يبدو عليه انه يعيد تلاوة درس قد تلاه من قبل عشرين مرة ، أو أنه يراجع موضوعا يستخلصه من ذاكرته لكثرة معرفته به ، فلا تعبير فى نظرة عينيه ، ولا حرارة فى نبرات صوته ، ولا حركة معبرة من يديه

وكيف يمكن أن يكون الامر على خلاف ذلك ؟ أو ليس هذا القسيس هو الواعظ الرسمى للسجن ؟ ان عمله ينحصر فى أن يواسى ويعظ ، وهو يعيش من عمله هذا . ان السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، ومرضى السجن ، هم الذين يتبعونه ، وهو الذى يجعلهم يعترفون ، وهو الذى يساعدهم ، لأن هذه هى وظيفته التى يؤديها . لقد هرم هذا الرجل وهو يرافق الآخرين الى الموت وألف منذ زمن بعيد ماتقشعر له الابدان ان شعره الابيض لم يعد يقف فوق رأسه ، فالليمان والمشنقة شيئان يراهما فى كل يوم حتى أصبح لا يتأثر كثيرا لمرآهما وقد تكون لديه كراسة يخصص صفحة منها للمحكوم عليهم

بالاشغال الشاقة ، وأخرى للمحكوم عليهم بالاعدام . انهم يخطرونه في الليلة السابقة بأنه سيكون لديه شخص ليواسيه في وقت كذا ، فيسألهم من أى نوع هو : ألأشغال شاقة ام « اعدام » ؟ .. ثم يراجع الرجل صفحته ويحضر درسه ، وهكذا يحدث أن هؤلاء الذين يذهبون الى ليمان « طولون » وأولئك الذين يذهبون الى ساحة الاعدام ، يصبحون جميعا لديه أفكارا مطروقة ، كما يصبح هو عندهم فكرة مطروقة كذلك

آه ! فليذهبوا اذن وليحضروا لى بدلا من ذلك واعظا شابا أو قسيسا شيخا كيفما اتفق من أول « أبرشية » تصادفهم ، ولينتزعوه من جلسته وهو الى جوار ناره يقرأ كتابه وليقولوا له : « هناك رجل سيموت حالا ، ويجب أن تكون أنت من تواسيه ، يجب أن تكون الى جانبه حين يوثقون يديه ، وحين يقصون شعره وأن تركب معه فى العربة ومعك صليبك كى تحجب عنه منظر الجلاد ، وأن تشاطره وعورة الطريق حتى يبلغ ساحة الاعدام ، وأن تجتاز معه هذا الجمع الغفير المروع شارب الدماء ، وأن تقبله وهو يرقى الى المقصلة ، وأن تظل واقفا هناك حتى يفصل رأسه عن جسده ، ويصبح رأسه هنا وجسمه هناك

فليحضروا الى اذن هذا القسيس وهو يرتجف ، وجسده بأسره يرتعد من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، وليلقوا بى بين ذراعيه وعلى ركبتيه . لسوف يبكى عندئذ ولسوف أبكى

معه ، سوف يكون فصيحا بليغا ، فأشعر بالمؤاساة وأسكب ماقى قلبى فى قلبه ، وسوف يملك على زمام نفسى وتنتقل الى قوة ايمانه

ولكن .. من هو هذا الشيخ الطيب ، أين هو منى وأين أنا منه ؟ اننى انسان شقى ، وظل من الظلال التى طالما رأى كثيرا منها ، وواحد آخر يضيفه الى عدد أولئك الذين نفذ فيهم حكم الاعدام !

وقد أكون مخطئا بابعاده عنى على هذا النحو ، فهو الرجل الصالح وانا الرجل الطالح ، ولكن الذنب ليس ذنبى للأسف ! وانما مرد ذلك لآرائى كانسان محكوم عليه بالموت ، فالآراء كثيراً ما تفسد كل شيء وتجعله يذبل !

لقد احضروا الى طعاما منذ لحظة . لقد حسبوا اننى لابد أن اكون فى حاجة اليه . هاهى ذى مائدة رقيقة شهية ، عليها دجاجة فيما يبدو ، وألوان أخرى كذلك .. حسنا ! لقد حاولت أن آكل ، ولكن الطعام سقط من فمى عند أول لقمة تناولتها ، وقد بدا لى كريها مر المذاق !

حضر منذ لحظة رجل قبعته فوق رأسه (١) ، فألقى على نظرة عابرة ، ثم نصب سلما من الخشب وأخذ يقيس أحجار الجدار من أسفل الى أعلى ، وهو يتكلم بصوت مرتفع للغاية ،

---

(١) تقضى التقاليد الغربية بان يرفع المرء القبعة عن رأسه عندما يدخل على قوم أو يحيى شخصا ما

ليقول تارة : « انه لكذلك » وليصيح تارة أخرى : « كلا ، ليس كذلك »

وسألت الحارس عمن يكون هذا الرجل ، فقال لى انه يبدو أنه يعمل كمساعد مهندس فى السجن

ومن ناحية أخرى ، فقد ثار حب الاستطلاع فى نفس هذا الموظف من ناحيتى ، فقد تبادل كلمات ، كلها تلميح مع حامل مفاتيح السجن الذى كان فى رفقته ، ثم انعم النظر فى لحظة، وهو يهز رأسه فى غير مبالاة ، واستأنف حديثه وهو يتابع قياس أبعاد الجدار بنفس اللهجة المرتفعة التى كان يتكلم بها من قبل

وما ان فرغ الرجل من عمله حتى اقترب منى وهو يقول فى صوت جهورى : « ياصديقى العزيز .. سوف يكون هذا السجن بعد ستة أشهر أفضل من هذا بكثير »

وكانت الحركة التى اتى بها وهو يقول ذلك كأنها تقول : « ولكنك للأسف لن تستمتع بهذا التحسين ! »

كان الرجل يبتسم تقريبا ، فخيل الى وقتئذ أننى كنت أرى اللحظة التى كان يوشك فيها أن يسخر منى برفق كما يمزح الناس مع عروس شابة فى ليلة الزفاف

وقد تكفل الجندى الذى كان فى حراستى بالرد عليه ، وكان حارسا عجوزا قد ابيض شعر رأسه وهو فى حراسة السجناء ، فقال له : « سيدى لايرفع المرء صوته هكذا فى حجرة ميت ! »

ورحل المهندس ، أما أنا فبقيت هناك كحجر من الاحجار

التى كان يقيس ابعادها !

وحدث لى بعد ذلك شيء يبعث على السخر ة ، فقد جاءوا ليغيروا حارسى العجوز ، وأنا أنانى وغير معترف بالجميل ، فلم أصافحه حتى بلمسة يد ، وحل مكانه آخر وكان رجلا ذابل الجبين ، تشبه عيناه أعين البقر ووجهه جامد لاتعبير فيه

ولم أكن من ناحيتى قد أعرت ذلك أى انتباه ، فقد كنت جالسا الى المنضدة وظهرى الى الباب ، وأنا أحاول أن ارطب بيدى جبينى الملتهب ، وكانت خواطرى تثور فى نفسى

وأحسست فجأة بضربة خفيفة على كتفى أدرت لها رأسى . كان هذا جندى الحراسة الجديد الذى كنت معه وحدى

وهذه ـ تقريبا ـ هى الطريقة التى وجه بها الحديث الى !

قال لى الرجل :

ـ هل أنت طيب القلب أيها المجرم ؟

ـ كلا !

وبدا لى أن سرعة اجابتى قد صدمته ، ومع ذلك فقد عاود حديثه قائلا فى تردد :

ـ ان المرء لايكون مؤذيا لمجرد الرغبة فى الايذاء

ـ ولم لا ؟ اذا لم يكن لديك سوى هذا الكلام فاتركنى وشأنى . ما الذى ترمى اليه ؟

ـ عفوا أيها المجرم ، لدى كلمتان ، كلمتان فحسب ، أريد أن أقولهما لك : اذا كنت تستطيع أن تسعد رجلا مسكينا دون أن يكلفك ذلك شيئا فهل تفعل ؟

فأجبته قائلا وأنا اهز كتفى :

ـ هل أنت قادم ياهذا من مستشفى المجانين ؟ انك تختار اناء غريبا لتستخرج منه السعادة ! أنا ؟ . . أنا أسعد شخصا ؟

فخفض الجندى من صوته وبدا عليه كأنه يخفى فى نفسه سرا ـ وان كان ذلك لا يتفق مع وجهه الذى ينطق بالغباء ـ وهو يقول لى :

ـ نعم أيها المجرم .. نعم ، السعادة ، والثروة ! ان هذا كله سوف يأتينى منك . هذا هو مافى الامر . انا جندى مسكين ، والخدمة ثقيلة ، وأجـــرى ضئيل ، ولى جواد يخربنى ! غير أننى أقامر فى أوراق « اليانصيب » كى أوازن حياتى . أن المرء تلزمه صناعة ، ولا ينقصنى حتى الآن كى اربح فى « اليانصيب » ، الا أن أحصل على الارقام الجيدة ، وأنا دائب البحث عنها فى كل مكان . انى ابحث عن أرقام مضمونة ولكنى أقع دائما على أرقام تجاورها ، أقامر على الرقم ٧٦مثلا فيكسب الرقم ٧٧ ، ومهما اصطنعت من فراسة فانى لاأهتدى الى الرقم الرابح .. اصبر قليلا من فضلك فقد أوشكت على الانتهاء ـ ولكن هذه فرصة طيبة بالنسبة الى ، اذ يبدو لى ـ عفوا أيها المجرم ـ أنك ستعدم اليوم ، ومن المؤكد أن الاموات الذين تزهق أرواحهم على هذا النحو يرون أرقام «اليانصيب» الرابحة مقدما . عدنى أن تعود مساء غد ـ ولن يضيرك هذا فى شيء ـ لتعطينى ثلاثة أرقام ، ثلاثة أرقام رابحة أليس كذلك؟ انى لا أخاف الاشباح فكن مطمئنا ، واليك عنوانى : « ثكنات

بوبانكور ، سلم رقم ١ ، عنبر رقم ٢٦ فى نهـاية الدهليز »
وسوف تتعرف على فى غير عناء اليس كذلك ؟ ويمكنك ان تحضر حتى فى هذا المساء ان كان هذا يروق لك

وكنت شديد الرغبة فىاحتقار هذا الاحمق بعدم الرد عليه، لولا أن ثار فى نفسى أمل جنونى ، ففى مثل الحالة اليائسة التى كنت فيها ، يعتقد المرء أحيانا أن فى وسعه أن يحطم سلسلة حديدية بشعرة

فقلت له وانا أمثل بقدر مايستطيع ان يمثل انسان يوشك أن يموت :

ـ اصغ الى .. اننى أستطيع حقا أن اجعلك اغنى من الملك، أن أجعلك تربح الملايين ، ولكن بشرط

ففتح الرجل عينين يطل منهما الغباء وهو يقول :

ـ ماهو ؟ ماهو ؟ سوف أفعل كل شيء لارضائك أيهـا المجرم !

ـ أعدك بأربعة أرقام لا بثلاثة . استبدل ملابسك بملابسى

فصاح الحارس وهو يفك الازرار الاولى فى زيه العسكرى :

ـ لو كان الامر مقصورا على ذلك !

وكنت قد نهضت من مقعدى وأنا أرقب كل حركة من حركاته وقلبى ينتفض فى صدرى ، وكنت أتخيل الابواب وهى تفتح أمام زيى كحارس من حراس السجن ، وأتخيل الميـدان ، والشارع ، ثم دار القضاء من وراء ظهرى !

ولكن الرجل التفت الى وهو يقول فى تردد : « آه يا هذا !

لاشك فى انك لا تقصد بهذا طبعا الا أن تخرج من هنا ؟

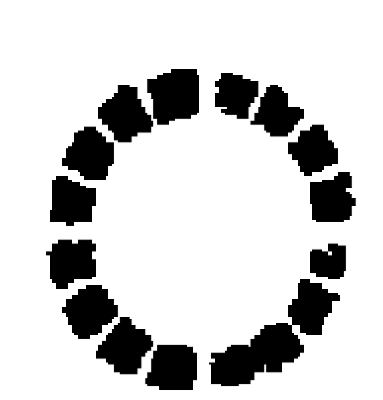
فأدركت عندئذ أن كل شيء قد ضاع ، وبذلت مع ذلك جهدا اخيرا لا طائل تحته ، جهـــدا غير منطقى على الاطـلاق ! فقلت له :

ـ انني اقصد هذا حقا ، ولكن ثراءك مضمون . . .

فقاطعنى الجندى قائلا :

ـ آه ! حسنا ! كلا ، كلا . . عجبا ! فلكى تربح أرقامى يجب أن تكون انت ميتا !

فجلست ثانية فى صمت وقد تملكنى يأس لم أشعر بمثله قط من قبل !



أيام صباى

أغمضت عينى ، ووضعت يدى فوقهما ، محاولا أن انسى الحاضر فى الماضى ، وبينما أنا أحلم ، عادت الى ذكريات طفولتى وشبابى ، واحدة اثر أخرى ، عادت هادئة وحلوة ضاحكة كأنها جزر من الزهر على حافة هذه الهوة السحيقة من الافكار السوداء الغامضة التى كانت تغلى فى رأسى

هأنذا أرى نفسى مرة أخرى طفلا وتلميذا ضاحكا نضرا ، ألعب وأجرى وأصيح مع اخوتى فى هذا الممر الكبير الاخضر بتلك الحديقة غير المنسقة ، حيث انقضت سنوات حياتى الاولى ، والتى كانت فى الاصل حديقة للراهبات ، تطل عليها تلك القبة الرمادية الضخمة ، قبة كنيسة « لوفال دوجراس »

وهأنذا هناك أيضا بعد ذلك بأربع سنوات وكنت فتى يافعا عطوفا على الدوام . وكانت هناك فتاة شابة فى الحديقة المنعزلة . كانت أسبانية صغيرة تدعى «بيبا» (١) ذات عينين كبيرتين ، وشعر أسود طويل ، وبشرة سمراء ذهبية ، وشفتين قرمزيتين وخدين ورديين . وكانت هذه الاندلسية الجميلة لا تتجاوز الاربعة عشر ربيعا

---

(١) Pepa (اسم التدليل) ، واسمها الاصلى كماورد فى نفس الصفحة Pepita

وكانت أمانا قد قالتـــا لنا أن نذهب لنجرى معا : فجئنا للتنزه . لقد قيل لنا أن نلعب وهانحن أولاء نتبادل الحديث ، ونحن من سن واحدة ، ولكننا لسنا من جنس واحد (١)

ومع ذلك فقد كنا ، منذ عام واحد مضى فحسب ، نلعب ونتصارع معا ، وكنت أتشاجر مع « بيبا » على أجمل تفاحة فى شجرة التفاح ، وكنت أضربها من أجل عش العصافير . انها كانت تبكى فكنت أقول لها : « حسنا فعلت ! » وكنا نذهب لنشكو معا الى أمينا اللتين كانتا تقولان بصوت مرتفع اننا كنا مخطئين ، ثم تقولان فى صوت خفيض انا كنا على حق

هاهى ذى الآن تتكىء على ذراعى وقد غمرنى الفخر وتملكنى الانفعال. اننا نسير الهوينى ، ونتحدث بصوت خافت . هاهى ذى تترك منديلها يسقط فألتقطه لها . ان أيدينا ترتعش عندما تتلامس . وهى تتحدث الى عن الطيور الصغيرة ، وعن النجم الذى نراه هناك ، وعن غروب الشمس المحمرة من وراء الشجر، أو عن صديقاتها فى مدرسة الراهبات ، أو عن ثوبها وشرائطها الحريرية . اننا كنا نتكلم فى أمور بريئة ولكننا كنا نحمر منها خجلا . . أن الفتاة الصغيرة قد أصبحت شابة يافعة

وفى ذاك المساء بالذات ــ وكان مساء ليلة من ليالى الصيف ــ كنا جالسين تحت أشجار الكستناء فى نهاية الحديقة، وبعد احدى فترات الصمت الطويلة التى كانت تتخلل نزهاتنا ، قالت لى « بيبا » : « هيا بنا نجر ! » .

---

(١) المقصود هنا أنه ذكر وأنها أنثى

انني لازلت أراها وهى ترتدى ثيابها السوداء حدادا على وفاة جدتها . لقد مرت بخاطـرها حينئذ فكرة من أفكار الطفولة ثم عادت « بيبا » لتصبح « ببيتا » مـرة ثانيـــة

وقالت لى : « هيا بنا نستبق ! »

وأخذت تعدو أمامى بقامتها الرشيقة ، وخصرها الدقيق ، وقدميها الصغيرتين اللتين كانتا ترفعان ثوبهــا الى منتصف ساقيها . وكنت أتبعها وهى تهرب أمامى ، وكان الهواء الذى يحدثه عدوها يرفع أحيانا قميصها الاسود فيتيح لى أن ارى ظهرها الاسمر النضر

وكنت لا أستطيع مغالبة نفسى ، فلحقت بها بجانب البئر القديمة المتهدمة ، وامسكت بها من حزامها بحق انتصارى عليها فى السباق ، ثم أجلستها على العشب فلم تقاومنى ، وامتثلت وهى تلهث وتضحك ، بينما كنت جادا لا اكف عن النظر الى عينيها الحالمتين من خلال أهدابها الطويلة السوداء

وقالت لى « بيبا » : « اجلس هنا ! فالدنيا لا تزال نهارا .. اجلس ولنقرأ شيئا ، أليس معك كتاب ؟ »

وكان معى يومئـــذ الجزء الثانى من كتـــاب « رحـلات سبالازانى » ، ففتحته فى صفحة ما واقتربت منهــا فأسندت كتفها الى كتفى ، وأخذنا نقرأ نفس الصفحة بصوت منخفض ، كل واحد منا من ناحيته ، فكانت هى تضطر الى انتظارى قبل أن اقلب الصفحة ، فقد كانت روحها أكثر استيعابا من روحى وكانت تقول لى وأنا لم أكد أنتهى من قراءة السطور الاولى

من الصفحة : « هل انتهيت ؟ »

وكان رأسانا فى خلال ذلك يلتقيان ، وكان شعرنا يتشابك ، وانفاسنا تمتزج رويدا رويدا وفجأة تلاقت شفاهنا !

ولما أردنا أن نتابع قراءتنا كانت النجوم تملأ السماء .. وقالت « بيبا » لوالدتها عندما عادت : « آه ! يا أماه ! آه يا أماه ! آه لو كنت تعلمين كم جرينا ! »

أما أنا فلذت بالصمت .

وقالت لى والدتى : « انك لا تقول شيئا يابنى ! يبدو انك حزين ! »

ولكنى لم أكن حزينا ! .. ان الجنة كانت فى قلبى ! لسوف أذكر هذه الامسية مدى حياتى !

طول حياتى !!

دقت الساعة منذ لحظة تعلن الواحدة . ولست أدرى أية ساعة تلك التى دقت فلم أعد اسمع جيدا دقات هذه الساعة ويبدو لى ان فى اذنى صوتا كصوت الارغن .. انها كانت أفكارى الاخيرة تدوى فى اذنى :

فى هذه اللحظة الحرجة بينما كنت أتأمل ذكرياتى ، وجدت جريمتى فيها بشعة للغاية للمرة الثانية ، ولكنى أتمنى كذلك أن اندم أكثر من ذى قبل . لقد كنت أكثر ندما منى الآن قبل أن يصدر الحكم على ، ومنذ ذلك اليوم ، يبدو لى أن ليس هناك مكان فى نفسى الا لافكار الموت . ومع ذلك ، فانى راغب حقا فى أن

أندم كثيرا

وعندما حلمت دقيقة ووصلت فى حلمى الى ضربة المقصلة التى يجب أن تضع حدا لحياتى بعد ساعات ، أجتاحتنى رجفة كأن هذا شيء جديد ! يا لطفولتى الجميلة ! ويا لشبابى الجميل ! انهما يبدوان لى الآن كقماش موشى بالذهب وأطرافه ملطخة بالدماء ، فبين ذلك العهد وبين الحاضر نهر من الدم ، دم الرجل الآخر .. ودمى أنا !

اذا قرأ الناس يوما قصتى هذه بعد كل تلك السنين من البراءة والسعادة ، فلن يصدقوا هذا العام البغيض الذى بدأ بجريمة وانتهى بالمقصلة : انه سيبدو شيئا يشوه بهجة هذه الحياة

ومع ذلك ، فيا أيتها القوانين البائسة ، ويا أيها الرجال التعساء : انى لم أكن شريرا ولا قاسيا !

آه ! أأموت بعد بضع ساعات ، وأنا أفكر فى اننى كنت فى مثل هذا اليوم حرا طليقا ، وطاهرا نقيا منذ عام واحد ؟ وفى أننى كنت أتنزه نزهات الخريف ، وأجول كما يروق لى وأسير تحت أوراق الخمائل ؟

فى هذه اللحظة بالذات ، هناك الى جوارى ، فى هذه المنازل التى تحيط بدار القضاء وبساحة الاعدام ، كما هو الحال كذلك فى كل مكان فى باريس ، يوجد أناس يروحون ويغدون ويتبادلون الحديث ويضحكون ، ويطالعون الصحف ويفكرون فى أعمالهم ، وتجار يبيعون وفتيات شابات يعددن ثوب

السهرة لحفل الليلة الراقص ، وامهات يلعبن مع اطفالهن !!

اذكر انى ذهبت يوما وانا صبى لرؤية أبراج كنيسة «نوتردام» وكنت قد أصبحت شاردا بسبب صعود السلم الحلزونى المظلم ، وعبور الدهليز الدقيق الذى يربط بين البرجين ، وباريس تحت قدمى ، عندما دخلت القفص المصنوع من الحجر والخشب حيث يتدلى الناقوس الكبير ومعه الجلة ، وهو يزن الفا من الكيلوجرامات

ولقد مشيت وأنا أرتجف فوق الالواح الخشبية غير المرتبطة تماما ببعضها ، وأنظر من بعيد الى هذا الناقوس المعروف جيدا لاهل باريس وأطفالها ، والاحظ فى رعب أن المنحنيات المغطاة بالقرميد التى تحيط بالناقوس كانت فى مستوى قدمى ، وكنت ارى فى أثناء ذلك ، وكأنى طير طائر فى الهواء ، المارين بميدان كنيسة «نوتردام» وكأنهم النمل !

وفجأة ، دوى الناقوس الضخم فهز صوته الراعد الهواء ، وجعل البرج الثقيل يرتج ، وكانت « الارضية » الخشبية تقفز فوق العروق ، وكدت أقع على ظهرى من جراء هذا الصوت ، فترنحت بعض الشىء وأوشكت ان انزلق عن الاطار المنحدر المصنوع من القرميد ، فنمت فوق الالواح الخشبية من فرط الرعب وأنا احضنها بذراعى فى عنف ولا أقوى على التنفس مع هذا الرنين الضخم الذى يجلجل فى اذنى ، وتحت عينى هذه الهوة السحيقة ، وهذا الميدان العميق حيث كان يتقابل عدد كبير من المارة الهادئين الآمنين الذين كنت أحسدهم

فى تلك اللحظة على ما هم فيه

حسنا! انه ليبدو لى الآن أننى لازلت فى برج الناقوس الكبير بكنيسة « نوتردام » . ذلك أنى أسمع فى هذه الساعة نفس الدوى وأحس بنفس الذهول ، فهناك شىء ما شبيه بدقات الاجراس يهز أعماق مخى ، ولم أعد ألمح من حولى هـــذه الحياة المهدة الهادئة التى تركتها وراء ظهرى ، والتى لا يزال الآخرون يدرجون فى طريقها ، لم أعد ألمحها الا من بعيد ، من بعيد جدا ، ومن خلال هوة سحيقة

□

ان مبنى المحافظة مقبض كئيب !

فسقفه الخشن المدبب ، وبرجه الصغير ذو الشكل الغريب، ومزولته الكبيرة البيضاء ، وطبقاته ذوات الاعمدة الصغيرة ، ونوافذه التى تعد بالمئات ، ودرجات سلالمه التى تآكلت من الخطوات ، وقوسا البناء اللذان يحفان به من يمين ومن شمال، كل هذا يجعله جاثما هناك ، كساحة الاعدام ، مظلما كئيبا تنهش الشيخوخة وجهه ، واسود جدا الى حد انه يبدو قاتما فى الشمس !

وفى الايام التى يتم فيها تنفيذ أحكام الاعدام ، تقذف أبوابه جميعا رجال الشرطة ويطل كل من فى نوافذه على الشخص المحكوم عليه بالموت . وفى المساء تظل مزولته التى بينت لى الساعة مضيئة فى واجهته المظلمة

الساعة الآن الواحدة والربع

وهذا هو ما أشعر به الان :

انى اقاسى صداعا شـــــديدا ، وبرودة مروعة فى كليتى ، وجبينى ملتهب ، وكلما وقفت أو انحنيت بدا لى أن هناك سائلا يجرى فى مخى فيجعله يضطرب فى غلاف جمجمتى

اننى أحس برجفة محمومة ، ومن وقت الى آخـــر يسقط القلم من يدى كما لو كانت تهزنى صدمات كهربائية

ان عينى ملتهبتان كما لو كنت غارقا فى دخان واشعـــر بألم هائل فى مرفقى

لسوف أشفى بعد انقضاء ساعتين وخمس واربعين دقيقة !

انهم يقولون ان المقصلة لا شىء ، وان المرء لا يتألم ، وانها نهاية حلوة ، وان الموت بهذه الطريقة يكون مختصرا بسيطا

آه ! أذن ما هذا الاحتضار الذى دام ســـتة أســـابيع ؟ وما هذه الحشرجة التى دامت يوما بأكمله ؟ وما هى اذن آلام هذا اليوم الذى لن يعوض والذى يمر بسرعة بالغـــة وفى بطء بالغ كذلك ؟ وما هو اذن هذا السلم من العـــذاب الذى ينتهى الى المشنقة ؟

وليس هذا كله ألما فى الظاهر !

أو ليست هى نفس التقلصات العنيفة حين يفرغ الدم قطرة قطرة ، وحين ينطفىء الذكاء فكرة بعد فكرة ؟

ثم أنهم يقولون ان المرء لا يتألم من المقصلة ، فهـــــل هم واثقون من ذلك ؟ ومن ذا الذى قال لهم هذا الكلام ؟ وهل حدث قط أن رأسا مقطوعا وقف يقطر دما على حافة السلة ليصيح

فى الجمهور قائلا : « ان هذا لايحدث ألما ! »

هل حدث ان أمواتا ماتوا بهذه الطريقة ، عادوا ليقدموا لهم الشكر وليقولوا لهم : « ان اختراعكم هذا اختراع عظيم ،وعليكم ان تستمروا فى استعماله ! انه آلة جيدة ! »

وهل هو « روبسبير » الذى قال هذا أو « لويس السادس عشر ؟ »

كلا ! لا شىء من هذا ! ان الامر ينتهى فى أقل من دقيقة ، بل فى أقل من ثانية ! ـ فهل وضعوا أنفسهم قط ، ولو فى الخيال، موضع الشخص الذى يكون هناك عندما تهوى السكين الثقيلة فتمض اللحم وتقطع العروق ، وتكسر مفاصل الرقبةوعظامها ؟

ولكن ماذا ؟ . . ماذا تقولون ؟ تقولون انها نصف ساعة ! وان الالم يختصر ! . فيا للهول !

من الغريب حقا انى لا أكف عن التفكير فى الملك !

ومهما فعلت ومهما هززت راسى ؛ فان هناك صوتا يتردد فى اذنى ويقول لى على الدوام : « هناك فى نفس هذه المدينة ، فى نفس هذه الساعة ،ولكن فيقصر آخر (١)،رجل لديه كذلك حراس على كل أبوابه » ، وهو شخص فريد فى نوعه بين أفراد الشعب من أمثالك مع هذا الفارق الوحيد ، وهو انه مرتفع بقدر ما أنت منخفض . ان حياته كلها دقيقة فدقيقة ليست الا مجدا وعظمة وسرورا ومتعة ، وكل شىء من حوله عبارة عن

---

(١) أى فى قصر آخر غير هذا القصرالذى جعلوا منه سجنا ودارا للقضاء

حب واحترام وتبجيل . ان أكثر الاصوات ارتفاعا لتنخفض حينما تتحدث اليه وتنحنى أمامه أكثر الجباه تيها وفخرا ، ولا تقع عيناه الا على الحرير والذهب ، وهو يرؤس فى هذه اللحظة اجتماعا من اجتماعات الوزراء فيقره الجميع على رأيه ، أو أنه يفكر فى رحلة الصيد التى سيقوم بها غدا ، أوفى حفل هذه الليلة الراقص ، وهو على يقين من أنه سيتم فى الساعة المحددة له ، ويترك للآخرين أمر تدبير ملذاته . حسنا ! ان هذا الرجل مثلك من لحم وعظم ! - ولكى تنهار المقصلة الرهيبة فى نفس اللحظة ويعاد اليك كل شىء : حياتك ، وحريتك ، وثروتك ، وأسرتك ، يكفى منه ان يكتب بهذا القلم الحروف السبعة التى يتكون منها اسمه فى ذيل قصاصة من الورق ، أو تقابل عربته الملكية العربة التى ستحملك الى ساحة الاعدام ! - وهو رجل طيب ، وقد لا يكون راغبا فى أكثر من هذا العمل الطيب ، ولكن هذا لن يحدث !

▱

حسنا اذن ! لنكن شجعاء مع الموت . ولنقابل هذه الفكرة الرهيبة بشجاعة ، ولنواجهها وجها لوجه . لنسأل ما هو الموت ، ولنعرف ماذا يريده منا ، ولنقلب هذه الفكرة على جميع وجوهها ، ولنقرأ الغيب ، ولننظر مقدما فى القبر

انه ليبدو لى اننى عندما ستغمض عيناى ، سأرى ضوءا باهرا وهوة سحيقة من النور تعدو خلالها روحى الى مالانهاية ، ويبدو لى أن السماء سوف تكون مضيئة من تلقاء نفسها ، وان

النجوم ستكون فيها كأنها نقط سوداوات ! نعم ، يبدو لى أن النجوم ستبدو كأنها نقط سوداوات على قماش ذهبى اللون ، بدلا من أن تكون كما تتراءى لاعين الاحياء ، قصاصات من ذهب على قطيفة سوداء .

أو قد تكون ويا لشقائى ــ هوة مروعة ، جدرانها مبطنة بالظلمات ، أهوى فيها بلا توقف وانا أرى أشباحا تتحرك فى الظلام !

أو اننى قد اجد نفسى بعد أن استيقظ من ضربة المقصلة فوق مساحة ما مسطحة رطبة،وانا ازحف فى الظلام ، وادور على نفسى مثل الرأس الذى يتدحرج ، ويخيل الى أنه ستكون هناك ريح صرصر عاتية تدفعنى بلا هوادة ، فأصطدم هنا وهناك برءوس أخرى تتدحرج ، واننى سأمر أحيانا فى طريقى بمستنقعات وجداول وانهار بها سائل فاتر مجهول ، وأن كل شىء سيكون حالك السواد ، وان عينى حينما تتجهان فى دورانهما الى أعلى فلن تريا الا سماء مظلمة تضغط عليهما طبقاتها الكثيفة ، والا قبابا ، ضخمة من دخان أسود كالظلمات ، ترى فى النهاية على بعد سحيق ، وأن عينى سوف تريان كذلك شررا صغيرا أحمر يتطاير فى الظلام ، لا يلبث عندما يقترب منهما أن يتحول الى طيور من نار ، وستظل الحال على هذا النحو الى الابد

وقد يحدث أحيانا فى مواقيت معينة أن يجتمع أولئك الذين ماتوا فى ساحة الاعدام خلال ليالى الشتاء السوداوات فى الميدان

الذى هو خاص بهم ، ولسوف يكون هذا الجمع جمهورا شاحبا داميا ، ولن أتخلف عن أن أكون بينهم ، ولن يكون هناك قمر وسوف نتحدث فى أصوات خافتة . ان مبنى المحافظة سوف يكون هناك بواجهته العتيقة ، وسقفه الممزق ، ومزولته التى كانت لا ترحم أحدا . وسوف تكون فى الميدان مقصلة من جهنم يعدم بها أحد الشياطين جلادا ، وسوف يتم ذلك فى الساعة الرابعة صباحا ، وسوف نتجمهر بدورنا من حوله !

نعم ، قد يكون الامر كذلك . ولكن أذا عاد هؤلاء الموتى فعلى اية صورة يعودون ؟ وما الذى يحتفظون به من اجسامهم الناقصة المشوهة ؟ وماذا سوف يختارون ؟ هل سيكون شبح كل منهم رأسا أم جذعا ؟

وا أسفاه ! ترى ماذا يفعل الموت بأرواحنا ؟ وأى شكل يدعه لها ؟ ما الذى يأخذه منها أو يعطيها اياه ؟ واين يضع الموت الروح ؟ وهل يجعل لها فى بعض الاحيان عينين بشريتين كى تنظرا الى الارض وتبكيا ؟

آه ! الى بقسيس ! أريد قسيسا يعرف هذا ، ويحدثنى عنه ! أريد قسيسا وصليبا أقبله !

رباه ! انه دائما نفس القسيس ! (١)

▱

لقد رجوته أن يتركنى فأنام ، وألقيت بنفسى على السرير ،

(أ) يقصد نفس الكاهن الذى كان معه منذ قليل ، وقال عنه ان كلامه فاتر لا حرارة فيه ولا تأثير له

وكان دمى كله قد صعد فى الواقع الى رأسى ، فحملنى هذا على النوم • كانت هذه نومتى الاخيرة من هذا النوع !

ورايت فى المنام أن الوقت كان ليلا ، وخيل الى انى كنت فى مكتبى مع اثنين من أصدقائى أو ثلاثة ، لست أدرى من هم على وجه التحقيق

وكانت زوجتى نائمة مع طفلتها فى الغرفة المجاورة

وكنا نتحدث أنا وأصدقائى فى صوت خفيض ، وكان ما يدور بيننا من الحديث يبعث الخوف فى أنفسنا

وفجأة ، خيل الى أنى أسمع صوتا ما فى الغرف الاخريات من المسكن ! كان صوتا خافتا غريبا غير واضح !

وكان أصدقائى قد سمعوا هذا الصوت كما سمعته ،فأنصتنا جميعا : كان كأنه صوت قفل يفتح خلسة ، أو مزلاج يسحب فى صوت ضئيل

وكان ثمة شىء يثلج أطرافنا : وهو أننا كنا خائفين • وحسبنا أن لصوصا قد تسللوا الى مسكنى فى هذه الساعة المتقدمة جدا من الليل ، فقررنا ان نذهب لنرى ما هنالك • فنهضت من فوق مقعدى ، وأخذت الشمعة فى يدى ، وتبعنى اصدقائى واحدا فى اثر الآخر

واجتزنا غرفة النوم المجاورة ، وكانت زوجتى نائمة مع ابنتها ، ثم وصلنا الى غرفة الجلوس ، ولكن لم يكن هناك شىء كانت الصور مثبتة فى اطاراتها الذهبية من فوق الستائر الحمراوات ، غير أنه خيل الى أن الباب الذى بين غرفة الجلوس

وبين غرفة المائدة ليس فى مكانه المألوف

ودخلنا غرفة المائدة وطوفنا بها باحثين فاحصين ، وكنت أنا الذى يسير فى الطليعة . كان باب السـلم مغلقا تماما وكذلك النوافذ . وعنـدما بلغت المدفأة رأيت أن صوان الملابس كان مفتوحا ، وان بابه كان مشدودا الى زاوية الجدار ، كما لو كان المقصود هو اخفاء ذلك . فأدهشنى هذا ، واعتقدنا أن هناك شخصا ما وراء هذا الباب

فأمسكت هذا الباب بيدى كى أعيد اغلاقه ولكنه قاومنى . فعجبت وجذبته بقوة هى أكبر من سابقتها ، وفجأة استجاب الباب ، واكتشفنا خلفه امرأة عجوزا قصيرة القامة متدليـة الذراعين ومغمضة العينين ، قد وقفت بلا حراك كما لو كانت ملتصقة بركن الجدار !

كان ذلك منظرا مفزعا يقف له شعر رأسى عندما أفكر فيه !

وقلت سائلا هذه العجوز : « ماذا تفعلين هنا ؟ »

فلم تحر جوابا ، وعدت أسألها قائلا : « من أنت ؟ »

فلم تجبنى كذلك ولم تبد حراكا وظلت مقفلة العينين

وعندئذ قال لى أصدقائى : « انها دون شك شريكة هـؤلاء الذين تسللوا الى بيتك لاغراض شريرة ، ولابد انهم قد فروا حين سمعونا نقترب منهم ، ولم تتمكن هى من الهرب فاختبأت هنا ! »

فسألت المرأة من جديد ، ولكنها ظلت لا تتكلم ولا تتحرك ولا تنظر ! ودفعها أحدنا فوقعت على أرض الغرفة ، وقعت كتلة

واحدة ، كأنها قطعة من الخشب أو شيء جامد لا حياة فيه !

وهززناها من قدميها ، ثم أوقفها أثنان من بيننا ، وجعلاها تستند من جديد الى الجدار ، غير أنها لم تبد مايدل على أنها على قيد الحياة ! فصرخنا فى أذنها ولكنها بقيت صامتة كأنها صماء !

ونفد صبرنا مع ذلك ، وكان رعبنا ممزوجا بالغضب ، فقال لى واحد من أصدقائى : « ضع الشمعة تحت ذقنها ! »

فوضعت فتيلة الشمعة الموقدة تحت ذقنها ، وعندئذ فتحت المرأة عينا واحدة ، فتحتها قليلا ، فكانت عينا خاوية لا تنظر ، مخيفة لا حياة فيها !

فأبعدت الشمعة عنها وقلت لها : « آه ! اخيرا ! هلا أجبتنى ايتها الساحرة العجوز ؟ من تكونين ؟ »

وانطبقت عين المرأة بحركة تلقائية فقال الآخرون : « أنها تبالغ كثيرا فى هذه المرة ! أعد الشمعة مرة أخرى اذ يجب أن نحل عقدة لسانها !

فأعدت الشمعة تحت ذقن العجوز ، ففتحت عينيها فى بطء ونظرت الينا جميعا واحدا بعد الآخر ، ثم انحنت فجأة ونفخت فى الشمعة بنفس بارد ، واحسست فى نفس اللحظة بثلاث أسنان حادة تنغرس فى يدى فى الظلام !

واستيقظت عندئذ من نومى مذعورا وقد غمر جسمى عرق بارد . وكان القسيس الطيب جالسا عند أسفل سريرى يتلو بعض الصلوات

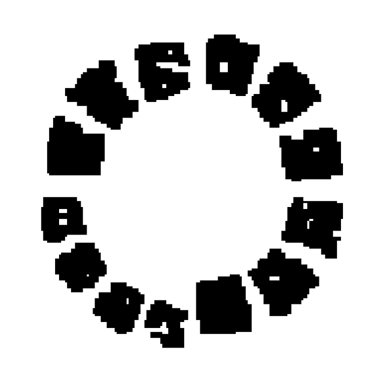
فسألته قائلا :

ـ هل نمت طويلا ؟
فأجابنى بقوله :

ـ نمت ساعة يابنى . لقـد أحضروا لك ابنتك وهى هنا تنتظرك فى الحجرة المجاورة ، ولم أشأ أن يوقظك أحد

فضحكت قائلا :

ـ آه ! ابنتى ؟ ليأتونى بابنتى !



ماري ابنتي

انها نضرة وردية اللون ذات عينين كبيرتين ، انها لجميلة حقا !

لقد البسوها ثوبا يلائمها تماما

اخذتها ورفعتها بين ذراعى ، ثم أجلستها على ركبتى وقبلت شعرها

وساءلت نفسى : ترى لماذا لم تحضر معها امها ؟ ألأن أمها مريضة ، وكذلك جدتها ؟ حسنا !

كانت تنظر الى فى دهشة بادية ، بينما أخذت أداعبها ، وأحضنها ، والتهمها بقبلاتى وهى تتركنى افعل كل ذلك، غير انها كانت بين لحظة وأخرى تلقى نظرة حائرة على خادمتها، التى كانت تبكى فى ركن الغرفة

واستطعت أخيرا أن أتكلم فقلت لها :

ـ « ماري ! » ياصغيرتى « ماري ! »

وكنت فى تلك اللحظة أضمها فى عنف فوق صدرى المنتفخ بالدموع الملتهبة ، فصاحت صيحة صغيرة وقالت لى :

ـ آه ! انك تؤلمنى يا سيدى !

« سيدى ؟ ! » ها هو ذا عام تقريبا قد انقضى لم ترنى

خلاله هذه الطفلة المسكين ! لقد نسيتني ، نسيت وجهي وكلامي ولهجتي، ثم . . . من ذا الذي يستطيع أن يعرفني وأنا بهذه اللحية ، وفي هذه الثياب ، وفي مثل هذا الشحوب ؟ آه ! أهكذا محيت سريعا من هذه الذاكرة ، وهي الذاكرة الوحيدة التي كنت أود أن أعيش فيها ! آه ! أبمثل هذه السرعة لم أعد أبا ؟ أنا الذي قضى على ألا اسمع قط بعد الآن هذه الكلمة : كلمة « بابا » ! هذه الكلمة التي هي من لغة الاطفال ، والتي تبلغ من العذوبة حدا لا يمكن ان تبقى معه في ذاكرة الرجال !

ومع ذلك ، فقد كنت لا أتمنى الا أن أسمع هذه الكلمة من هذا الفم مرة أخرى ، مرة واحدة فحسب ... هذا هو كل ما كنت أريده في مقابل الاربعين سنة التي سيأخذونها من عمري !

قلت لها وأنا آخذ بيديها الصغيرتين في يدى :

ـ اصغى الى يا « مارى » .. الا تعرفينني ؟

فنظرت الى بعينيها الجميلتين ثم أجابت قائلة :

ـ آه ! حسنا . . انني لا اعرفك !

فعدت أكرر القول :

ـ أنظرى الى جيدا . . كيف لا تعرفين من انا ؟

فقالت لى :

ـ بلى ، بلى . . انك سيد

وا أسفاه ! هاهو ذا امرؤ لايحب من أعماق قلبه الا مخلوقا واحدا فى هذا العالم ، يحبه بكل جوارحه ، ويجده أمامه ،

وينظر اليه ، ويراه ويحدثه ويرد عليه .. ولكن هذا المخلوق لا يعرفه ، انني لا أريد عزاء الا منها ، فهيالانسان الوحيد الذى لا يعرف أني فى حاجة الى العزاء ، لانى أوشك أن أموت !

واستأنفت حديثى معها قائلا :

ـ ألك أب يا « مارى ؟ »

ـ نعم يا سيدى

ـ حسنا ، وأين هو ؟

فرفعت الى عينين واسعتين تطل منهما الدهشة وقالت :

ـ الا تعلم اذن ؟ لقد مات يا سيدى !

وما أن قالت هذا حتى تصلبت ذراعاى على مارى لهول ما سمعته فصرخت ، وكادت تسقط منى على الارض ! بينما كنت أقول لها :

ـ مات ! أتعرفين يا « مارى » ما معنى أنه مات ؟

فأجابتنى قائلة :

ـ نعم يا سيدى .. انه فى الارض وفى السماء

ثم استطردت تقول من تلقاء نفسها : « انى أصلى من أجله صباحا ومساء وأنا على ركبتى ماما »

فطبعت قبلة على جبينها وقلت لها :

ـ قولى لى صلاتك يا « مارى »

ـ لا أستطيع يا سيدى . ان الصلاة شىء لا يقال بالنهار . تعال عندنا فى البيت هذا المساء وأنا أقولها لك

وكان هذا حسبى لكننى قاطعتها قائلا :

ـ « ماري » أنا والدك !

ـ آه !

فعدت أقول :

ـ أتحبين أن اكون والدك ؟

فأشاحت الطفلة عني بوجهها ثم قالت :

ـ كلا ‥ لقد كان والدى اجمل منك كثيراً !

فأخذت اغرقها بقبلاتي ودموعي ، فحاولت ان تفلت من بين ذراعي ، وهي تصيح قائلة : « انك تؤلمني بلحيتك ! »

وعندئذ اجلستها ثانية على ركبتي وانا أحرسها بعيني ثم سألتها قائلا :

ـ أتعرفين القراءة يا « ماري » ؟

ـ نعم ، أعرفها جيـــداً ، ان والدتي تجعلني أقرأ حروفا اكتبها بنفسي

فقلت لها وأنا اريها ورقة كانت تمسك بها مجعدة في احدى يديها الصغيرتين :

ـ أريني كيف ‥ هيا اقرئي قليلا !

فهزت رأسها الجميل وقالت :

ـ حسنا ! لست أعرف الا قراءة الحكايات

فعدت أقول لها :

ـ استمرى في المحاولة ‥ أريني ‥ اقرئي

فنشرت الورقة واخذت تتهجى مشيرة بأصابعها :

ـ ح .. ك .. حك .. م .. « حكم » (١)

فانتزعت الورقة من بين يديها ، فقد كان ما تقرؤه هو نص الحكم الصادر على بالاعدام ، وكانت خادمتها قد اشترت هذه الورقة بنصف مليم ، أما أنا فقد كلفتنى غاليا !

ليست لدى كلمات أستطيع بها أن أعبر عما كنت أقاسيه فى تلك اللحظـة ! كان عنفى قد روعها وأخافها وكانت تبكى تقريبا . وفجأة قالت لى : « أعد الى ورقتى اذن لالعب بها ؛ عجبا ! »

فأرجعت الطفلة الى الخادمة وأنا أقول :

ـ خذيها من هنا !

ثم تهالكت على مقعدى مكتئبا يائســا شارد اللب ! يجب عليهم أن يحضروا الآن فلم أعد أتمسك بأى شىء اذ انقطع آخر وتر من أوتار قلبى ، وصرت مهيئا لما سيفعلونه بى على الفور !

ان القسيس رجل طيب القلب ، وكذلك الجندى الحارس ، وأحسب أن كل واحــد منهما قد ذرف دمعة حينما قلت للخادمة : « خذيها من هنا ! »

لقد قضى الامر الآن ، فيجب على أن اتصلب فى أعمــاق نفسى ، وأن أفكر بثبات فى الجلاد ، وفى العربة ، والجنود ، والجمهور المحتشد على الجسر ، وفى المحتشدين على رصيف

---

(١) Arrêt « حكم » : كانت هذه أول كلمة مكتوبة على الورقة التى بين يديها ، وكانت صورة من حكم الاعدام الصادر عليه

نهر السين ، وفى الذين يقفون أمام النوافذ ، وفيما سوف يعد خصيصا من أجلى فى تلك الساحة ، ساحة الاعدام المظلمة التى يمكن أن ترصف بما هوى من الرءوس

أحسب أنه لا تزال أمامي ساعة كي آلف كل ذلك

▱

ان كل هذا الشعب سوف يضحك ويصفق . وبين كل هؤلاء الرجال الاحرار الذين لا يعرفهم الجلادون ، والذين يسرعون فى مرح لمشاهدة تنفيذ حكم الاعدام ، بين كل هذه الرءوس التى ستغطى الميدان ، هناك أكثر من راس كتب عليه أن يتبع رأسى ان عاجلا أو آجلا الى السلة الحمراء ، وهناك أكثر من شخص من هؤلاء الذين يأتون من أجلى سوف يأتون فى يوم من الايام من أجل أنفسهم !

فبالنسبة لهؤلاء الاشخاص المنحوسين ، هناك نقطة معينة فى ساحة الاعدام ، هى عبارة عن مكان مشئوم ومركز جاذبية وفخ منصوب ، وهم يحومون حوله ويحومون الى أن يتردوا فيه !

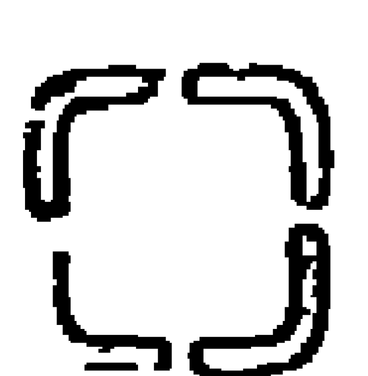
ابنتى الصغيرة « مارى ! » ـ لقد أعادوها لتلعب .. أنها تنظر الى الجمهور من خلال نافذة العربة التى تقلها ولم تعد تفكر فى هذا « السيد ! »

قد يتاح لى كذلك بعض الوقت لاكتب لها بعض الصفحات حتى تقراها فى يوم من الأيام ، وتبكى بعد خمسة عشر عاما بدلا من اليوم

نعم ، يجب أن تعرف « ماري » قصتي مني وأن تعرف السبب في أن الاسم الذي أتركه لها يقطر دما !

قصتي

كلمة من الناشر : لم نجد الى الآن الورقات الخاصة بهذا الفصل من الكتاب . وقد يكون المحكوم عليه بالاعدام لم يجد متسعا من الوقت لكتابتها كما ستبينه الصفحات التالية ، وكان الوقت قد أزف عندما خطرت له هذه الفكرة .



الى ساحة الاعدام

من غرفة بدار المحافظة ! اننى هنا اذن ! لقد تمت الرحلة البغيضة وهاهى ذى ساحة الاعدام ، وهاهو ذا الشعب الرهيب يضج بالصراخ تحت نافذتى وينتظرنى وهو يضحك !

وقد حاولت جهدى أن أتشجع أو أستجمع قواى ولكنى كنت أحس دائما بأن قلبى يخوننى ، وقد خاننى اكثر ، وكاد يكف عن الخفقان عندما رأيت هاتين الذراعين الحمراوين ، وفى نهايتهما هذا المثلث الاسود (١) ، تطالعنى من فوق الرءوس وقد نصبت كلها لى بين مصباحين على رصيف النهر ، فطلبت أن أعترف اعترافا أخيرا ، فأحضرونى الى هنا ، وذهبوا لاستدعاء أحد وكلاء النائب العام ، وهأنذا أنتظره وسوف أكسب بهذا بعض الوقت !

وهذا ما حدث :

دقت الساعة ثلاث دقات ، عندما جاءوا ليخطرونى بأن الوقت قد حان ، فارتجفت كما لو كنت أفكر فى شىء آخر منذ ست ساعات أو منذ ستة أسابيع ، بل منذ ستة أشهر ، لقد كان لهذا فى نفسى وقع سيىء لم أكن أنتظره

---

(١) ذراعة المقصلة وسكينها

وساقونى أمامهم فاجتزت الدهاليز ونزلت السلالم ثم دفعونى بين نافذتين صغيرتين بالطابق الارضى فى غرفة ضيقة مظلمة سقفها به قباب ، ويصل اليها ضوء خافت من نور يوم معتم مطير • كان الضباب كثيفا ، وكان ثمة مقعد فى وسط الغرفة وأمرونى بالجلوس فجلست

وكان هناك ، عدا القسيس والحراس ، رجال يقفون الى جوار باب القاعة وبطول الجدران ، وكان هناك كذلك ثلاثة رجال آخرين

كان أولهم — وهو أطولهم قامة واكبرهم سنا — بدينا ذا وجه أحمر ، ويرتدى « ردنجوتا » وقبعة غير منتظمة الشكل لها زوايا ثلاث • لقد كان هو !

نعم ، كان هو الجلاد بعينه ، خادم المقصلة ، وكان الرجلان الآخران خادمين له شخصيا !

وما ان جلست حتي اقترب مني الرجلان الآخران من الخلف وكأنهما قطان ، وفجأة ، أحسست ببرودة الصلب تسرى فى رأسى وصلصلة المقصات تدوى فى أذنى ، وأخذ شعرى الذى كانوا يقصونه كيفما اتفق ، يتساقط خصلا على كتفى ، فكان الرجل البدين ذو القبعة المثلثة الاركان ينفضه فى رفق بيده الضخمة

ومن حولى كان يدور الحديث فى صوت هامس

وكانت تترامى الى أذنى من الخارج جلبة عظيمة كأنها رعد يتدفق مع الهواء ، فحسبت فى أول الامر أنها صادرة من النهر ، ولكنى

ما لبثت أن سمعت ضحكات عالية ، فأدركت أن تلك الجلبة كانت منبعثة من الجماهير

وكان هناك شاب يقف الى جوار النافذة وقد أخذ يكتب بالقلم فوق حافظة أوراقه ، فسأل أحد الحراس قائلا :

ــ ما هذا الذى يفعلونه الآن بالمحكوم عليه ؟

فأجابه الحارس بقوله :

ــ هذه زينة المحكوم عليه بالموت !

ففهمت عندئذ أن هذا سيظهر غدا فى الصحف

وفجأة ، خلع لى أحد خادمى الجلاد سترتى ، وأخذ الآخر يدى اللتين كانتا تتدليان إلى جانبى وجذبهما وراء ظهرى ثم أحسست بالحبل وهو يلتف حول معصمى فى بطء • وفى نفس اللحظة كان الخادم الاول يفك ربطة عنقى ، لكن قميصى «الباتستا» وهو الخرقة الوحيدة التىتبقتلى مما كنت أرتديه فيما مضى ــ جعله يتردد لحظة ثم شرع الرجل فى قص « ياقته »

فارتجفت لهذه الحيطة الرهيبة حينما مس المقص الصلب رقبتى ، وارتعد مرفقاى فى عنف ظاهر وند عنى أنين مكتوم ارتعشت له يدا « صبى » الجلاد

وقال لى الرجل :

ــ سامحنى يا سيدى ! هل آلمتك ؟

ان هؤلاء الجلادين ذوو شعور رقيق للغاية

وكان صراخ الجماهير يتزايد فى الخارج

وعرض على الرجل البدين ذو الوجه الاحمر أن أشم منديلا مشبعا بالخل ، فقلت له بأعلى صوت استطعته : « شكرا ، هذا لا جدوى منه فأنا أشعر بأنى فى حالة جيدة »

وعندئذ انحنى أحدهم ، وقيد قدمى بحبل رفيع رقيق كان لا يتيح لى ان أخطو الا خطوات ضيقة للغاية ، ثم ربطوا هـــذا الحبل الاخير بحبل يدى

ثم ألقى الرجل البدين بالسترة على كتفى وربط كميها معـا من أسفل ذقنى • كان كل ما كان ينبغى أن يتم هنا قد انتهى

وفى تلك اللحظة ، اقترب منى القسيس بصليبه وقال لى : « هيا يابنى »

فأمسك بى خادما الجلاد من تحت ابطى فنهضت ومشيت • كانت خطواتى خائرة منهارة ، كما لو كانت كل ساق من ساقى لها ركبتان !

وفتح الباب الخارجى على مصراعيه فى تلك اللحظة ، فاندفع نحوى فجأة وأنا فى الظلام ، صياح الجماهير الغاضب مختلطا بالهواء البارد والضوء الابيض • ورأيت فجأة ودفعة واحدة من خلال المطر وعبر النافذةالصغيرة المعتمة آلافا مؤلفةمن الرءوس رءوس الشعب الذى تكدس بعضـه الى جانب البعض فى غير نظام ، وهو يصيح من فوق سلم المحافظة الكبير • وكان هناك الى اليمين عند عتبة الباب تماما صف من فرسان البـوليس على ظهور جيادهم التى لم يكن يبدو لى منها سوى صدورهـــا وأقدامها الامامية من خلال الباب المنخفض ، وكانت هناك فى

مواجهتى سرية من الجنود فى زى الميدان ، كما ظهـــرت الى اليسار مؤخرة عربة (كارو) كان يرتكز عليها سلم غليـــظ خشن ! فكان هذا كله لوحة كئيبة تتمشى تمـــاما مع باب السجن !

وكنت قد استطعت أن أحتفظ بشجاعتى حتى هـــذه اللحظةالرهيبة ،فخطوت ثلاث خطوات الى الامام ، وما كدتأبدو عند باب القاعة ، حتى علا صـــياح الجماهير قائلا : « هـــذا هو ! هذا هو ! هاهوذا يخرج أخيرا ! » وكان أقربهم الى مكانى يصفقون ، ومهما أحب الشعب ملكا فلن يحتفى به مثل هـــذه الحفاوة

وكانت العربة عربة (كارو) عادية يجرها جواد هـــزيل وكان سائقها يرتدى حلة زرقاء بها رسوم حمراء اللون شبيهة بثياب تجار الخضر حول سجن « بيستر »

وصعد الرجل البدين ذو القبعة المثلثة الاركان الى العـــربة أولا ، وكان الصبية المتعلقون بالسور الحديدى يصيحون لمرآه قائلين : « أهلا وسهلا بالسيد شمشون » ثم تبعـــــــه الى العربة أحد خادميه ، فعاد الصبية يصيحون من جـــديد : « مرحى يا ماردى ! » وجلس الرجلان علىمقعد العربة الامامى

ثم حان دورى ، فصعدت الى العربة فى مظهـــر ثابت بعض الشيء . وفى تلك اللحظـــة قالت امرأة كانت تقف الى جوار الجنود : « انه على مايرام ! »

ومنحنى هذا الثناء المروع شيئا من الشجاعة ، وجاءالقسيس

ليجلس الى جوارى وكانوا قد أجلسونى على المقعـــد الخلفى وظهرى الى جواد العربة ، فارتجف بدنى لهذه اللفتة الاخيرة ! انهم يبدون انسانية فى مثل هذه الامور

وأردت أن أنظر حـــولى • كان أمامى جنـــود ومن خلفى جنود ، ثم الجماهير ٠٠ نعم ، جماهير ثم جماهير ثم جماهير : لقد كان هناك بحر من الرءوس يغمر الميدان !

وكانت كوكبة من فرسان البوليس فى انتظارى عند باب سور المحافظة الحديدى • وأصدر الضابط أوامره ، فتحركت العربة مع الموكب كما لو كان صياح الجماهير قد دفعهـا الى الامـــام

واجتزنا الباب الحديدى ، وما كادت العـــربة تنعطف فى اتجاه قنطرة « أو شانج » حتى انفجرت الضوضاء فى الميدان ، من الارض الى أسطح المنازل ، ورددتها القناطر وأرصفة نهر « السين » فى دوى كأنه زلزال يهز الارض هزاً فى غير هوادة ولا رحمـــة !

وفى تلك اللحظة ، انضم البوليس ، الذى كان ينتظرنى ، الى قوة الحراسة

وكانت آلاف الافواه تصيح معا ، تماما كما يحدث عندمرور الملك : اخلعوا قبعاتكم ! اخلعوا قبعاتكم ! » (١)

فضحكت أنا كذلك ضحكة كئيبة وقلت للقسيس : « هم القبعات ٠٠ وأنا الرأس ! » (٢)

---

(١) لتحية الذاهب الى الموت عندمروره
(٢) أى هم يخلعون قبعاتهم وأنا سيخلع رأسى !

واخذ الموكب يسير خطوة خطوة . وكان رصيف الزهور تنبعث منه روائح زكية ، وكان اليوم يوم السـوق ، فتركت بائعات الزهور زهورهن من أجلى أنا

وهناك فى مواجهتنا ، قبل البرج المربع الجاثم فى ركن دار المحـافظة بقليل ، حانات كان الطابق الارضى منهـا يعج بالمتفرجين الذين ينعمون بأماكنهم الجميلة ، وكان أكثرهم من النساء ! لابد أن يكون هذا اليوم يوما طيبا بالنسبة لاصحاب الحانات ! فقد كانوا يؤجرون المناضد والمقـاعد والمنصـات والعربات (الكارو) ، وكان كل شيء مزدحمـا بالمتفرجين ، وكان بائعو الدماء البشرية يصيحون بملء أفواههم قائلين : « من ذا الذى يريد مكانا ؟ »

وتملكنى السخط على هذا الشعب ، ووددت لو أصرخ فى الناس قائلا : « من منكم يريد مكانى ؟ »

ومع ذلك فقد أخذت العربة تتقدم ، وفى كل خطوة كانت تخطوها كان الجمهور ينفض من ورائهـا وكنت أرى بعينى الشاردتين أفواجا من الناس ، وهى تسارع الى التجمع فى مواضع أخرى أبعـد الى الامام فى الطريق الذى يمضى فيه موكبى

وحينما بدأنا نمر فوق قنطرة « أوشانج » ألقيت بطريق الصدفة نظرة ذات اليمين الى الوراء ، فاستقرت عيناى عند رصيف نهر السين من الضفة المقابلة على برج أسود منعزل قائم من وراء أسطح المنازل ، وكان هذا البرج مزدانا بالنقوش،

وكنت أرى فى قمته تمثالين لوحشين من الحجر فى جلسة جانبية . ولست أدرى ماذا دفعنى الى سؤال القسيس عن أمر هذا البرج

فأجابنى الجلاد بقوله : « انه القديس جاك لابوشيرى »

ولست أدرى كيف كان لايفوتنى شيء مما كان يدورمن حولى رغم الضباب ورغم المطر الدقيق الابيض الذى كان يملأ الهواء وكأنه خيوط نسيج العنكبوت ، وكانت كل واحدة من هذه التفاصيل تضيف الى نفسى عذابا فوق عذاب . ولست أجد من الكلمات ما أستطيع به أن أعبر عما أشعر به من انفعالات

وفى نحو منتصف قنطرة «أوشانج » العريضة جدا والمزدحمة للغاية ، والتى كنا نسير فوقها فى صعوبة بالغة ، تملكنى رعب عظيم وخشيت أن أغيب عن الوعى . ياله من غرور أخير ! فحرصت عندئذ على أن أعمل على تشريد ذهنى حتى أصير كالأعمى الاصم فلا أرى شيئا ولاأسمع شيئا عدا القسيس الذى كنت أسمع كلماته فى جهد جهيد تتخللها ضجة الشعب

فتناولت الصليب وقبلته ثم قلت : « رحماك يا الهى ! » وحاولت أن أفنى نفسى فى هذه الفكرة ، ولكن كل « مطب » تضطرب فيه العربة الصلبة كان يهزنى هزا عنيفا ، ثم أحسست فجأة ببرودة شديدة ، اذ كان المطر قد نفذ من ثيابى وغمر جلد رأسى من خلال شعرى الذى قصوه قصيرا

وسألنى القسيس قائلا :

ـ أترتجف من البرد يا بنى ؟

فأجبته بقولى :

ـ نعم

وكنت للاسف لا أرتجف من البرد وحده !

وعند ناصية القنطرة أبدى بعض النساء عطفهن على لانى شاب حديث السن . ثم مضينا قدما على طول الرصيف المشئوم ، فبدأت لا أرى شيئا ولا أسمع شيئا ! آه من كل هذه الاصوات وكل تلك الرءوس التي تطل من النوافذ والابواب وتحتشد أمام الحوانيت وفوق أعمدة النور ، آه من كل هؤلاء المتفرجين النهمين القساة ، هذا الجمهور الذى يعرفنى كله ولا أعرف شخصا واحدا منه ، هذا الطريق المرصوف والمسور بالوجوه البشرية !! اننى كنت ثملا مذهولا متبلد الذهن ! ان كل هذه الانظار التى تتطلع اليك شيء لا يمكن احتماله !

لقد كنت أترنح اذن فوق المقعد ولم أعد ألقى بالا الى شيء ، حتى ولا الى القسيس أو الصليب . وفى غمرة الضجيج الذى كان يحيط بى ، صرت لا أميز صيحات الشفقة من صيحات السرور ، أو أفرق بين الانات والضحكات ، ولا بين الاصوات والصخب ، فكل ذلك كان ضجيجا يدوى فى رأسى كما يدوى الصدى فى آلة من نحاس !

وكانت عيناى تقرآن لافتات الحوانيت بطريقة آلية ، وتملكنى مرة فضول عجيب لان أدير رأسي لانظر الى أى مكان كنت أسير . كان هذا تحديا آخيرا من العقل ، غير أن جسمى لم

يستجب لهذا ولبث عنقي مشلولا كأنه مات مقدما !

لقد لمحت فحسب ، عن يسارى من الجانب بعيدا عن النهر، برج كنيسة « نوتردام » الذى اذا نظر اليه من هذا الموضع ، فانه يحجب البرج الآخر ، هذا البرج الذى كان العلم مرفوعا عليه ، وكان به جمع غفير كان المفروض أنه يرى موكبى فى وضوح

وواصلت العربة المسير فأخذت تتقدم وتتقدم والحوانيت تمر ، واللافتات تتتابع مكتوبة أو مرسومة أو مطلية بالذهب وكان الجمهور يضحك ويضرب الوحل بالاقدام ، أما أنا فكنت أترك العنان لنفسى كما يترك الناس عنان انفسهم للاحلام

وفجأة ، أنقطعت سلسلة الحوانيت التى كانت تشغل عينى عند ناصية ميدان وأصبح صياح الجماهير أشد قوة وعمقا وانتشارا ، وصار أكثر مرحـــا كذلك ، وتوقفت العربة عن المسير بغتة فكدت أنكفىء على وجهى فوق « أرضـــيتها » الخشبية ، فستدنى القسيس وهو يتمتم قائلا : «تشجع يابنى!»

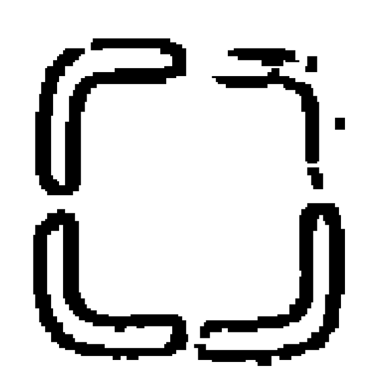
وجاءوا عندئذ بسلم عند مؤخرة العربة فقدم الى القسيس ذراعه فنزلت وخطوت خطوة واحـــدة ثم ألتفت الى ما ورائى لاخطو بعدها خطوة أخرى ، ولكنى لم أستطع ، اذ كنت قد رأيت شيئا رهيبا بين عمودين من اعمدة النور فوق الرصيف

آه ! لقد كانت هى الحقيقة !

فتوقفت كمالو كنت قد ترنحت من أثر الصدمة ، ثم صحت

قائلا فى صوت مخنوق : « لدىاعتراف أخير أريد ان افـضى به: » ولكنهم صعدوا بى الى هذا المكان

وطلبت أن يتركونى كى أدون ارادتى الاخيرة ، ففكوا وثاق يدى ، ولكن الحبل هنا الى جوارى على أهبة الاستعداد ، وبقيته ملفوفة على قدمى !



الرجاء الأخير

لقد حضر منذ لحظة أحد القضاة أو مأمور أو رجل من رجال القضاء لست ادرى أيهم • فطلبت اليه العفو عنى وأنا أضم يدى وأزحف على ركبتى • فأجابنى الرجل قائلا وهو يبتسم ابتسامة مشئومة : « هل هذا هوكل ماتريد أن تقوله لى؟ »

فعدت أكرر قولى : « العفو عنى ! العفو عنى ! أو خمس دقائق فحسب •• على سبيل الرحمة ! »

من يدرى؟ فقد يصل أمر العفو! ومن الشناعة حقاً أن أموت هكذا وأنا فى مثل هذه السن ! وكثيرا ما رأينا أمر العفو يأتى فى اللحظة الاخيرة وعمن يعفون ياسيدى اذا هم لم يعفوا عني؟

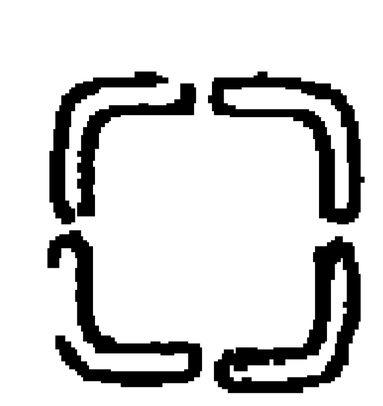
يالهذا الجلاد البغيض ! لقد دنا من القاضى ليقـــول له ان تنفيذ الحكم يجب أن يتم فى ساعة محددة ، وان هذه الساعة تقترب ، وانه كان مســئولا ، وليقول له فوق هـــذا ان السماء كانت تمطر ، وان ذلك كان خليقا بأن يجعل المقصلة تصدأ !

فصحت قائلا : « آه ! دقيقة أخرى على سبيل الرحمـــة ! دقيقة واحدة أنتظر فيها وصول العفو ! وإلا فانى سوف أدافع عن نفسى ! سوف أعض ! »

فانصرف القاضى والجلاد • وبقيت وحدى !

وحدى مع جنديين

أوه ! يا للشعب الرهيب بصياحه الذى يشبه عواء الضباع!
من يدرى ما اذا كنت أفلت منه ؟ من يعلم ما إذا كنت أعتق ؟
أو أن يصدر عفو عنى ؟ ... من المحال ألا يصدر العفو عنى !
آه ! يا للتعساء ! يبدو لى أنهم يصعدون السلم ! ...
الساعة الان الرابعة !



مهزلة بمناسبة مأساة

بقلم ڤيكتور هيجو

الشخصيات

مدام دي بلانفال
الفارس
أرجاست
شاعر حزين
فيلسوف
سيد بدين
سيد نحيل
سيدات
خادم

المكان : فى الصالون

شاعر حزين يقرأ هذه الابيات من شعره :

وفى اليوم التالى ، كانت خطوات تعبر الغابة
وكان هناك كلب ينبح ويهيم على طول مجرى النهر
ولما حضرت الفتاة وهى تبكى
وعادت لتجلس وقلبها مملوء بالهواجس
على البرج القديم جدا فى القصر العتيق
سمعت « ايزور » الحزينة أنين الامواج
ولكنها لم تعد تسمع الربابة بعد ذلك
ربابة القصصى (الشاعر) اللطيف !

كل المستمعين ــ « برافو » ! .. لطيف ! .. مدهش !

(ويصفقون فى نفس الوقت)

مدام دى بلانفال ــ هناك فى نهاية هذه القصيدة شىء غامض لا يمكن تعريفه ، شىء يسيل الدمع من العيون

الشاعر الحزين ــ (فى تواضع) : أن الكارثة مقنعة ؟

الفارس ــ (وهو يهز رأسه) : ان كلمتى ربابة وعازف ربابة : رومانتيكيتان !

الشاعر الحزين ــ نعم ياسيدى ، ولكنها رومانتيكية معقولة، رومانتيكية بمعنى الكلمة ــ ماذا تريد اذن ؟ يجب علينا أن نتساهل بعض الشىء

ــ نتساهل .. نتساهل ! اننا بهذه الطريقة نفقد الذوق

الفنى .. اننى لاعطى بامتنان كل الاشعار الرومانتيكية فى مقابل هذا الرباعى :

فى بلاد « باند » و «سيتير »

أخطر « جانتيى برنار »

بأن فن الحب يجب فى يوم السبت

أن يتعشى عند فن الاعجاب .

هذا هو الشعر بمعنى الكلمة ! فن الحب الذى يتناول عشاءه يوم السبت عند فن الاعجاب ! حسنا ، حسنا ! ولكنه اليوم عبارة عن ربابة وعازف ربابة . لم يعد ثمة شعر به تورية واستعارة .. آه ! لو كنت شاعرا لكتبت أشعارا مملوءة بالاستعارات .. ولكنى لست شاعرا .. انا .

الشاعر الحزين ـ ومع ذلك ، فالاشعار الحزينة والعاطفية ...

الفارس ـ اننا نريد ياسيدى أشعارا بها استعارة .. (ثم بصوت هامس الى مدام دى بلانفال) : ثم انه استعمل كلمة غير فرنسية !

شخص ما ـ (مخاطبا الشاعر الحزين) : لدى ملاحظة ياسيدى .. انك تقول : « القصر العتيق » ، فلماذا لا تقول : « القصر القوطى ؟ »

الشاعر الحزين ـ ان كلمة « قوطى » لا تقال فى الاشعار

شخص ما ـ آه ! هذا أمر مختلف

الشاعر الحزين ـ (متابعا حديثه) : افهمنى تماما ياسيدى

•• يجب أن نحدد أهدافنا ، وانا لست من هؤلاء الذين يريدون اشاعة الفوضى والاضطراب فى الشعر الفرنسى والعودة به الى عصر مدرسة « رونسار » (١) ومدرسة « بريبـوف » اننى رومانتيكى ولكننى معتدل ، والامر عندى تماما كالانفعالات ، فأنا اريدها حلوة رقيقة ، وحزينة حالمة ، ولكنى لا أريد أبدا دما وبشاعة • يجب تغطية الكوارث ، وأنى لاعرف أن هناك أناسا مجانين يشتط خيالهم ويهرف ، وهم •• عجبا ! هل قرأتن سيداتى الرواية الجديدة ؟

السيدات ـ أية رواية ؟

الشاعر الحزين ـ الرواية التى عنوانها : « آخر يوم » ..

سيد بدين ـ كفى ياسيدى ! فأنا أعرف ما تريد أن تقول ان العنوان وحده يرهق أعصابى !

مدام دى بلانفال ـ وأنا كذلك •• انه كتاب فظيع ، وهو عندى هنا

السيدات ـ أرينا اياه .. أرينا اياه !

(يمر الكتاب من يد الى أخرى)

شخص ما ـ (يقرأ) : آخر يوم فى حياة شخص ...

السيد البدين ـ رحماك ياسيدتى !

مدام دى بلانفال ـ حقا انه كتاب شنيع يسبب الكابوس ، ويجلب لقارئه المرض

سيدة ـ (بصوت منخفض) : يجب أن أقرأ هذا الكتاب

---

(١) شاعر رومانتيكى من شعراء القرن السادس عشر

السيد البدين ـ من واجبنا أن نعترف بأن الاخلاق تتدهور من يوم الى يوم . يا الهى ! يالها من فكرة بشعة ! . . أوليس تحليل كل الآلام البدنية ، وكافة انواع العــــذاب النفسى التى يقاسيها رجل محكوم عليه بالاعدام يوم تنفيذ الحكم فيــــه ، واحدة بعد أخرى ، والتغلغل فيهــا ، والتنقيب عن جذورها وملابساتها ·· أو ليس هذا كله شيئا شنيعــا ؟ أتفهمـــن سيداتى أنه قد وجد بالفعل كاتب تبنى هذه الفكرة وان ثمة جمهورا يقرأ لهذا الكاتب ؟

الفارس ـ هذا فى الواقع عمــــل ينطوى على أكبر قدر من الوقاحة !

مدام دى بلانفال ـ ومن هو مؤلفه ؟

السيد البدين ـ لم يكن اسم المؤلف مكتوبا على الطبعـــة الاولى

الشاعر الحزين ـ انه هو بعينه الذى سبـــق له أن كتب روايتين أخريين ·· أقسم بشرفى أنى نسيت عنوانيهما ! ان الرواية الاولى تبدأ فى المشرحة وتنتهى فى ساحة الاعدام ، وفى كل فصل من فصولها تجدون غولا يأكل طفلا

السيد البدين ـ وهل قرأت هذا ياسيدى ؟

الشاعر الحزين ـ نعم ياسيدى ، وحوادث هذه الرواية تقع فى « ايسلاندة » . .

السيد البدين ـ فى ايسلاندة ؟ ان هذا لشىء مخيف !

الشاعر الحزين ـ لقد كتب عدا هذا أشعارا غنائية وألوانا

عدة من القصائد لست أعرفها ، ولـــكن فيها الوحوش ذات الاجساد الزرقاء !

الفارس ـ (ضـــاحكا) : يا الهى ! لابد أن يكون هذا بيتا عنيفا من الشعر

الشاعر الحزين ـ لقد نشر كذلك دراما مسرحية ـ انهـم يسمون هذا دراما ـ ولقد جاء بها هذا البيت الجميل من الشعر :

غدا ، الخامس والعشرون من يونيو سنة ألف وسـتمائة وسبع وخمسين

شخص ما ـ ياله من بيت من الشعر !

الشاعر الحزين ـ ان هذا يمكننا كتابته بالارقام ‥ انظرن سيداتى :

غدا ٢٥ يونيو ١٦٥٧

(يضحك ويضحك معه الآخرون)

الفارس ـ لقد أصبح الشعر الآن شيئا « خاصا »

السيد البدين ـ آه ! ان هذا الرجل لا يعرف كيف يقـرض الشعر فما هو اسمه ؟

الشاعر الحزين ـ انه اسم يصعب حفظه والنطق به ‥وبه المقطع : « جو » ‥ شىء يشبه « فيزيجو » على ما أذكر ،وعلى كل حال فان فيه شيئا من « الاوستروجو » (١)

يضحك

---

(١) قبائـــل البربر التى غـــزت الامبراطورية الرومانية . وواضح ان الشاعر الحزين يلمح هنا الى اســـم « فيكتور هيجو »

مدام دى بلانفال ـ انه رجل بغيض !

السيد البدين ـ بل رجل شنيع !

سيدة شابة ـ ان شخصا يعرفه قال لى ..

السيد البدين ـ أتعرفين شخصا يعرفه ؟

السيدة الشابة ـ نعم ، وهو يقول انه رجل حلو الطباع ، بسيط ، يضحك وهو فى عزلتـه ، ويقضى أيامه فى اللعب مع ابنائه

الشاعر الحزين ـ ويقضى لياليه يحلم بمؤلفاته المظلمة .هذا شيء فريد ! اليكم بيتا من الشعر نظمته بطريقة طبيعية للغاية :

« ولياليه يقضيها فى الحلم فى مؤلفاته المظلمة »

وهو بيت مصقول حسن ، ولا تنقصه الا قافية بيت آخـر آه ! .. هاهى ذى :

« فى الليل الحالك »

السيد البدين ـ كنت تقولين اذن يا سـيدتى أن المؤلف المذكور له أبناء صغار .. ان هذا مستحيل ياسيدتى ، عندما يكتب المرء مثل هذا الكتاب ! ... أوه ! مثل هـذه الرواية المفزعة ...

شخص ما ـ ولكن ، لاى هدف كتب هذه الرواية ؟

الشاعر الحزين ـ انى لى أن أعرف ؟

فيلسوف ـ يبدو انه كتبها بقصد الاسهام فى الغاء عقوبة الاعدام

السيد البدين ـ انى أقول لكم ان هذه الرواية شىء بشع !

الفارس ــ آه ! انى ارى ذلك . . انها اذن مبارزة مع الجلاد

الشاعر الحزين ــ الواقع انه يحقد على المقصلة كل الحقد

سيد نحيل ــ استطيع ان أتصور ذلك ، فهى خطب اذن ؟

ــ كلا على الاطلاق أن هناك صفحتين على الاكثر عن نص عقوبة الاعدام ، أما الباقى كله فهو عبارة عن مشاعر

الفيلسوف ــ هذا هو وجه الخطأ ، فالموضوع كان جديرا بالتأمل . ان « الدراما » أو الرواية لاتبرهن على شيء ، ثم انى قرأت الكتاب ، وهو كتاب رديء

الشاعر الحزين ــ بل وكريه ! هل هذا فن ؟ انه قد تخطى الحدود وحطم الزجاج ! وهناك كذلك هذا المجرم . . آه لو كنت أعرفه ! ولكن . . كلا ! ماذا جنت يداه ؟ اننا لانعرف عن ذلك شيئا ، وليس لاحد الحق فى أن يثير اهتمامى بانسان لا أعرفه

السيد البدين ــ ليس من حق الكاتب أن يثير فى القارىء آلاما بدنية . اننى عندما أشاهد مسرحيات محزنة يحدث فيها قتل . . آه ! حسنا . . فذلك لا يؤثر فى نفسى ، ولكن هذه الرواية يقف لها شعر الرأس ، انها تجعل جسمك يرتجف بأسره ، وتجعلك تحلم احلاما فظيعة . لقد لازمت الفراش يومين بعد ان قرأتها

الفيلسوف ــ زد على ذلك انه كتاب بارد ومتكلف

الشاعر ــ أوه ! كتاب ! . . كتاب !

الفيلسوف ــ نعم ، وكما كنت تقول منذ لحظة ياسيدى ، انه كتاب لا يقوم على الفن الحقيقى ، الفن بمعنى الكلمة ! اننى

لا اعنى بأمر افتراضى محض ، ولست أرى فى الرواية شخصية تتقمص شخصيتى . وفوق هذا ، فأسلوبه ليس بسيطا ولا واضحا ، انه ملىء بالكلمات العتيقة ، افليس هذا هو ماكنت تقوله ؟

الشاعر ــ بلا شك ، بلا شك ! يجب ألا تكون هناك شخصيات

الفيلسوف ــ ان الشخص المحكوم عليه لا يثير الاهتمام

الشاعر ــ وكيف يمكن أن يثير اهتمام القارىء ؟ انه ارتكب جرما ولا يشعر بندم ! لو أننى كنت المؤلف لفعلت عكس ذلك تماما ، لكنت قصصت قصة شخص المحكوم عليه ، فقلت انه مولود من أبوين شريفين وتلقى تربية طيبة . وبعد هذا يأتى الحب ، والغيرة ، وجريمة لاتكون جريمة .. ثم يأتى دور الندم . نعم ، كثير من الندم . ولكن القوانين التى وضعها الانسان لا ترحم . فيجب اذن أن يموت . وهنا ، كنت أتحدث عن موضوعى الذى أعالجه : عقوبة الاعدام

مدام دى بلانفال ــ آه ! آه !

الفيلسوف ــ عفوا ! ان الكتاب كما يفهمه السيد لا يبرهن على شىء ، فالخاص لايكون حكما للعام

الشاعر ــ حسنا ! هناك ماهو افضل . لماذا لم يتخير المؤلف بطلا لروايته مثلا ، شخصية كشخصية مالزرب ، مالزرب الفاضل ؟ آخر يوم فى حياته وعذابه قبل اعدامه ؟ آه ! انه كان خليقا عندئذ بأن يكون منظرا جميلا نبيلا ! ولكنت بكيت

وارتجفت من الانفعال ورغبت فى الصعود معه الى المقصلة !

الفيلسوف ــ اما انا فلا !

الفارس ــ ولا انا . الواقع أن السيد « مالزرب » الذى تتحدث عنه كان ثائرا

الفيلسوف ــ ان شنق « مالزرب » لايبرهن على شىء ضد عقوبة الاعدام بوجه عام

السيد البدين ــ عقوبة الاعدام ! ماجدوى الاهتمام بهذا الامر ؟ وفيم تعنيكم عقوبة الاعدام ؟ لابد ان يكون هذا الكاتب من وضاعة الاصل بحيث يأتى ليثير فى انفسنا بكتابه هذا كابوسا بشأن هذا الموضوع !

مدام دى بلانفال ــ ان الذين وضعوا القوانين لم يكونوا اطفالا

الفيلسوف ــ آه ! ومع ذلك ، فعندما تعرض الامور فى صراحة . . .

السيد النحيل ــ آه ! هذا هو ما ينقص الكتاب تماما : الحقيقة والصراحة

ماذا تريدون أن يعرفه شاعر عن مثل هذه الامور ؟ يجب أن يكون المرء على الاقل وكيلا للنائب العام . عجبا ! انى قرأت فى نص ذكرته احدى الصحف عن هذا الكتاب ان المحكوم عليه لايقول شيئا عندما يقرءون عليه نص الحكم . حسنا ! أما أنا فقد رأيت شخصا محكوما عليه بالاعدام وهو يصيح بقوة فى تلك اللحظة قائلا :

« هل ترون ... ؟ »

الفيلسوف ــ هل تأذن ... ؟

السيد النحيل ــ عجبا أيها السادة ! ان المقصلة وساحة الاعدام ذوق فاسد ، والدليل على هـذا أنه كتاب يفسـد الذوق ، ويجعل المرء عاجزا عن أن يشعر بانفعالات نقيـة طازجة وساذجة ! متى ينهض اذن أولئك الذين يدافعون من الادب السليم ؟ انني أود أن أكون عضوا فى الأكاديمية الفرنسية وقد يعطينى هذا الحق مرافعاتى كوكيل للنيابة . هذه هى حقيقة الامر ياسيد « أرجاست » ، فما رأيك فى كتاب « آخر يوم فى حياة محكوم عليه بالاعدام ؟ »

ارجاست ــ الحق ياسيدى اننى لم اقرأ هذا الكتاب ولن اقرأه . لقد كنت اتعشى بالامس عند « مدام دى سينانج » ، وتحدثت الماركيزة « دى موريفال » بشأنه مع الدوق « دى ملكور » . ويقال أن هناك بعض شخصيات ضد رجال القضاء ، وخاصة ضـــد الرئيس « داليمون » ، وكان الاب « دى فلوريكور » ساخطا كذلك ، ويبدو أن فى الكتاب فصلا يعارض فيه الدين بعض المعارضة وآخر ضد الملكية . آه لو كنت وكيلا للنائب العام !

الفارس ــ حسنا ؟ وكيلا للنائب العام ! وماذا عن الدستور؟ وعن حرية الصحافة ؟ ومع ذلك فسوف تقـرونني على أن شاعرا يريد الغاء عقوبة الاعدام أمر شنيع . آه ! فلو أن انسانا سولت له نفسه فى العهد البائد أن ينشر رواية ضد تعذيب

المتهمين . . . ! ولكنهم اصبحوا يستطيعون كتابة كل شيء منذ سقوط الباستيل ! ان الكتب تحدث ضررا بليغا

السيد البدين ـ بليغا ! لقد كنا نعيش فى هدوء ولا نفكر فى شيء. كان يقطع فى فرنسا رأس من حين لآخر هنا أو هناك أو راسان على الاكثر فى كل اسبوع ، غير ان ذلك كله كان يتم فى هدوء وبلا فضائح . كانوا لايقولون شيئا ، ولم يكن أحد يفكر فى الامر على الاطلاق ! وهذا كتاب .. كتاب يحدث لك صداعا اليما !

السيد النحيل ـ علينا أن نجد الوسيلة التى تجعل المحلفين يحكمون بالاعدام بعد قراءة هذا الكتاب

ارجاست ـ انه يربك الضمائر

مدام دى بلانفال ـ آه ! الكتب ! الكتب ! من كان يصدق ذلك عن رواية ؟

الشاعر ـ ليس ثمة شك فى أن الكتب كثيرا ما تكون سما لقلب النظام الاجتماعى

السيد النحيل ـ دون أن نأخذ فى حسابنا اللغة التى يحدث فيها السادة « الرومانتيك » ثورة كذلك

الشاعر ـ علينا أن نميز أيها السادة ، فثمة « رومانتيك » و « رومانتيك »

السيد النحيل ـ الذوق الفاسد ! الذوق الفاسد !

ارجاست ـ انك لعلى حق . الذوق الفاسد !

السيد النحيل ـ ليس ثمة مايرد به على ذلك

الفيلسوف ــ (وهو يتكىء على مقعد سيدة) : انهم يقولون هناك أشياء لم تعد تقال حتى فى شارع موفتار

ارجاست ــ آه ! ياله من كتاب بغيض !

مدام دى برفال ــ اوه ! لا تلقوا به فى النـــار فهنـــاك من تمتدحه

الفارس ــ حدثينى عن زماننا المــاضى . لشد ما فسد كل شيء منذ ذلك الحين : الذوق ، والاخلاق ! هل تذكرين زماننا يا « مدام دى بلانفال » ؟

مدام دى بلانفال ــ كلا ياسيدى . لست اذكره أبدا

الفارس ــ لقد كنا نحن الشعب أكثر لطفا واكثر مرحا وخفة روح ، وكانت الحفلات الجميلة تقام دائما ، وكانت تقرأ الاشعار الجميلة . كان ذلك ساحرا للغاية . أهناك ماهو أروع من الشعر الذى كتبه السيد « دى لاهارب » عن الحفل الراقص العظيم الذى أقامته مدام « لاماريشال دومايى » فى عام ١٧٠٠ وهو العام الذى أعدم فيه « داميان ؟ »

السيد البدين ــ (متنهدا) : ياله من زمن سعيد ! والآن صارت الاخلاق مروعة ، وكذلك الكتب . هـــذا البيت من الشعر الذى قاله بوالو (١)

« أن سقوط الفنون يتبع تدهور الاخلاق »

---

(١) شاعر فرنسى من شعراء القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (١٦٣٦ – ١٧١١م)

الفيلسوف ـ (فى صوت منخفض موجهـا الحديث إلى الشاعر) :

هل هناك عشاء فى هذا البيت ؟

الشاعر الحزين ـ نعم ، بعد قليل

السيد النحيل ـ والآن هم يريدون الغاء عقوبة الاعدام ، ويكتبون لهذا الغرض روايات قاسية فاسدة الذوق ولا أخلاق فيها مثل « آخر يوم فى حياة محكوم عليه بالاعدام » وغيرها مما لا أعرفه !

السيد البدين ـ عجبا ياعزيزى ! لنكف عن الكلام عن هذا الكتاب الشنيع . وبما اننا قد تقابلنا ، فقل لى ماذا ستفعل فى أمر ذلك الرجل الذى رفضنا طلب استئنافه للحكم الصادر عليه منذ ثلاثة أسابيع ؟

السيد النحيل ـ آه ! قليلا من الصبر ! أنا هنـا فى عطلة ودعنى التقط انفاسى . وسوف ارى ذلك بعد عودتى الى العمل، ومع ذلك فان تأخرت كثيرا فسوف اكتب الى من يقوم بعملى

خادم ـ (يدخل) : سيدتى : أن العشاء قد اعد !

وكلاء مجلات دار الهلال

لبنان و الاقليم الشمالي :	وكالة دار الهلال ـ شارع فرنسا صندوق البريد ٣١٥٧ ـ بيروت
العراق :	السيد محمود حلمي ـ المكتبة العصرية ببغداد
اللاذقية :	السيد نخلة سكاف
جدة :	السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص . ب ٤٩٣
البحرين :	السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص . ب ـ ٢١
البرازيل :	Dr. Michel H. Tomé, Paeto Do Colegio No. 3 3° Andar — Sala 9 SAO PAULO — BRASIL
غانا :	Mr Joseph Hassan, The Cine Travel Co., P.O. Box 1883, ACCRA, GHANA
نيجريا :	Mr Mohammed Said Mansour, P.O. Box 652, LAGOS, NIGERIA
سيراليون :	Messrs, Allie Mustapha & Sons, P.O. Box 410, Freetown Sierra Leone
سنغافورة :	Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit Almaktab Attijari Asshargi, P.O. Box 2205, SINGAPORE

هذا الكتاب

اذا كان فيكتور هيجو قد اشتهر أكثر ما اشتهر بموقفه الرحيم حيال البؤساء وحملته على النظم الاجتماعية التى كانت قائمة فى عصره ، فقد اشتهر كذلك بحملاته العنيفة ، وثوراته القاسية على الاوضاع القانونية . وقد ثار هيجو ثورة عنيفة على الحكم بالاعدام . وقد دفعه الى هذه الحملة نزعة انسانية نبيلة كان من أثرها أن أخرج هذا الكتاب الرائع (آخر أيام محكوم عليه بالاعدام) (La dernier jour d'un condamné) الذى أحدث ضجة عظيمة بين الناس عامة ورجال القضاء خاصة . وقد جعل الكتاب على لسان أحد المحكوم عليهم بالاعدام الذى شاء أن يسطر على القرطاس أحاسيسه ومشاعره وما لاقاه من ضروب العسف والقسوة من رجال الشرطة . وهذه الصرخة المدوية التى سجلها هيجو فى كتابه دفعت كثيرا من الناس أن يطالبوا بالغاء الحكم بالاعدام . ويسر سلسلة كتاب الهلال أن تقدم اليوم هذه التحفة الرائعة